

الأدلة القواطع والبهلین

فی إبطال أصول الملحدين

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

مكتبة المعارف
الرياض

طبعة جديدة
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم الى يوم الدين

أما بعد : فان الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين ، وجعلهم الهداة والأئمة الى كل علم صحيح نافع ودين صحيح ، والى كل صلاح وخير . وخص محمدا ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة : فيهما الهدى والحق والنور ، وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة ، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية ، إليهما ينتهى كل علم وحق وكمال .
وقد وضع الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية ، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد في الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقى ونال الصفة الخاسرة . وأعظم الناس انحرافا عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان ، وهم شرار الخلق ، الدعاة الى الضلال والشقاء ، فانهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها ، وزين لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقد أصطلوا لباطلهم أصولا يقلد فيها بعضهم بعضا ، وهى فى غاية الفساد ، يكفى اللبيب مجرد تصورهما عن إقامة البراهين على نقضها ، لكونها مناقضة للعقل والنقل ، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق .

أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول « أرسطو ، اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورساله . وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات ، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره ، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه . وكلوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات ، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه . وهذا أصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم . وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم ، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء

ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعا وعقلا شيخ الإسلام ابن تيمية ، فإنه بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها ، كل وجه منها كاف في إبطالها ، فكيف إذا اجتمعت . فننقل كلامه عليها ثم نتم ذلك بما ييسره الله .

قال رحمه الله في نقض (التأسيس) لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث « والكلام على هذا من وجوه :

(أحدها)

أن هذا الكلام هو وما ذكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجبل والضلال ، ومن لا يدري ما يخرج منه من المقال ، من كلام أهل العلم والعقل والبيان . وهو أشبه بكلام قصاص الجهال ، والمغالطين ، من كلام العلماء والمجادلين بالحق . وما أحسن ما قال الإمام أحمد في بشر المريسي : كان صاحب خطب ، ولم يكن صاحب حجج . بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج .

(الثاني)

أن يقال : ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به في أعظم

المطالب واشرف المعارف ، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا
عن الخيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية .

(الثالث)

أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي قد
علموا أنهم أقل الناس نصيباً في معرفة العلم الإلهي وأكثر اضطراباً وضلالاً
فإن كلامه وكلام ذويه في الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام
بقية الناس والغلط في ذلك قليل نادر وكلامهم في الطبيعيات دون ذلك وكلامهم
في ذلك غالبه حق وفيه باطل ، وأما كلامهم في الإلهيات ففي غاية الاضطراب
ومع قلته كثير الضلال عظيم المشقة ، وهذا أمر يعرفه كل من له نظر صحيح
في العلوم الإلهية فلا يستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه الحال
وقد اعترف اساطين الفلسفة بأن العلم الإلهي لا سبيل لهم إلى العلم واليقين فيه
وانما يؤخذ فيه بالآولى والأخلق والأحرى فيه ، فاذا كانوا معترفين بأنهم
ليس عندهم علم ولا يقين في العلم الإلهي كيف يستدل بكلامهم فيه .

(الوجه الرابع)

ما معنى قوله فليستحدث لنفسه فطرة أخرى والفطرة هي الحلقة التي فطر
الله عباده عليها أتريد أن تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة فهذا
غير مقدور للبشر فإن الله فطر عباده عليها ، أم تريد أن يترك ما فطر عليه من
المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك وهذا الذي يصلح أن
تريده ، فهذا أمر بتبديل فطرة الله التي فطر عباده عليها وهي طريقة المبتدعين
المبدلة لفطرة الله وشرعته كما قال ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة الحديث
فاهل الكتاب المنزل بدلوا وحرفوا من كتاب الله ما بدلوه وحرفوه ، وهم
مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلي بدلوا من فطرة الله التي فطر العباد
عليها وغيروا منها ما غيروا ، ولهذا قيل : ان أرسطو هذا بدل طريقة

الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن .
والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها ، وبعث اليهم رسله
وأنزل عليهم كتبه ، فصالح العباد وقوامهم بالفطرة المكمل بالشرعة المنزلة .
وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته - خلقه وأمره - وأفسدوا
اعتقادات الناس وإرادتهم - إدراكهم وحركاتهم ، قولهم وعملهم - من هذا
وهذا ، كما بدل بنو إسرائيل القول الذي أمروا به ، والعمل الذي
أمروا به . قال :

(الوجه الخامس)

أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به
وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا ، ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعقله بعقله
فقد أشبه الذين قال الله فيهم : ﴿ قالوا لن تؤمن حتى توفى مثل ما أوتى
رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ومن سلك هذا السبيل فهو في
الحقيقة غير مؤمن بالرسول . ولا متلق عنه الأخبار بشأن الربوبية ،
ولا فرق عنده أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به ، فإن ما أخبر به
إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به . انتهى كلامه رحمه الله

(الوجه السادس)

أن يقال : هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسله وأنزل كتبه ، فانه
بعث رسله مذكرين للعباد ما فطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب
شكر نعمه وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله المتفضل بالنعم الظاهرة
والباطنة ، ومذكرين لهم بالآمر بما فطرت العقول على استحسانه ، كالصدق
والبر والأحسان والأخلاق الجميلة ، وبالنهي عما فطرت العقول على استقباحه
من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة ، فكيف يؤمر الناس
أن يمحووا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور ؟ وهل هذا إلا نهى عن جميع

سواد السعادة والفلاح والصلاح ، وامر بكل منكر وفشاء وسوء وشر وفساد ؟ وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح ، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق ، مالا منتهى لشدة ضرره

(الوجه السابع)

أن يقال هذه الوصية تتضمن نحو العلوم الصحيحة ، والمعارف النافعة ، والإيمان الصحيح ، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والنقي ، ورفض الإيمان بالكلية . فان الانسان في الأصل خلق ظلوما جهولا : ليس فيه هدى ، ولا علم صحيح ، ولا برهان ويقين في المطالب العالية المقصودة ، إلا من جهة الطرق التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه . ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر اليها المكلفون أعظم من ضرورتهم الى الطعام والشراب وما به قوام حياتهم المادية . فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هو هدى الله ، فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمله أن يترك العباد مهملين سدى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالا وما آلا ، فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض ، والمعارف النافعة ، والإيمان الصحيح ، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ فمن تمسك بوصية هذا الملحد الضال فقد أمر بمحو ما جاءت به الكتب ، وأرسلت به الرسل ، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووحى الشيطان ، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم جحد ما جاءت به الرسل ، وأهلها أحق الناس بالدخول تحت قوله تعالى : ﴿ الذين كذبوا

بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ، فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴿ الآية

(الوجه الثامن)

أن يقال : هذا الكلام باطل شرعاً وعقلاً . أما الشرع فجميع الكتب المنزلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله في فطر الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقه وصدق رسله وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب اعتقاداً وتخلقاً وتصديقاً ودعوة إليها وهداية لها من جميع الوجوه . ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة ، مادة للجهالات البسيطة والمركبة وأنوع الضلالات ، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة . ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصل ، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية . وأما العقل فان أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغايم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والايمان الصادق والأخلاق العالية التي من اتصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقاماً ، فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه ، بل ينكرونه أشد الإنكار ، ويرونه من فظائع المنكرات ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وماذا بعد العقائد الصحيحة إلا العقائد الباطلة ؟ وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلا الأخلاق الرذيلة السافلة ؟ وماذا بعد الرشد إلا الغي والفساد ؟

(الوجه التاسع)

أن يقال : هذا الأصل الخبيث يعود الى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفساد ، ومن كل معرفة حاصلة في القلب ، فهو أعظم معولٍ لهدم العلوم كلها . لأن لازم ذلك يوجب أن لا يثبت في القلوب

شئ من العلوم الصحيحة ، بل لا تزال الشكوك والمكارات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق ، ويتدرج بذلك الى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة ، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقى . وهذا أعظم معول للشوعية المفسدة للدين والدنيا ، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد

(الوجه العاشر)

أن يقال على وجه التنزل : أيما أولى ؟ نحو ما يقع في القلوب وما اتصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، ثم بعد ذلك يوجهه صاحبه بزعمه الى طلب الحقائق من غير أساس صحيح يبنى عليه ولا معارف نافعة يعتمد عليها ؟ وقد علم ما يرد على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شئ من أنواع الوسوس والخيالات الفاسدة والضلالات المتنوعة ، وأنها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقاداً وتخلقاً تأتى بالغرائب المزججة والخيالات المضحكة ، أى هذه الحالة التى لا يرتضيها من له مسكة من عقل ، وحالة قلب ملآن من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق القوى المستمد من معين الرسالة ومن هدى الله الذى هدى به الخلق ، وفيه من الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ما يميز به الحقائق إذا وجهه صاحبه الى طلب الحقائق والحق من أبوابها واستخراج المعارف من طرقها ، فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يتهدى به إلى المطالب العالية ، فمن سوى بين الحالتين والقلبين فليكن على ذهاب عقله بعد ذهاب دينه ، فالعلوم التى لها أساس قوى تعتمد عليه ولها براهين قطعية تستمد منها وتهتدى بها وصاحبها عنده من الأصول ما يفرق به بين الحق والباطل : هى التى يعتبرها أولو الألباب ، وينافسون فى تحصيلها ، ويرون إدراكها أجلاً نعمة أنعم الله بها عليهم . وهؤلاء الملحدون يوصون بتركها ومحوها من القلوب حتى يلبس

الباطل فيها من غير معارض يعارضه من العلم واليقين والإيمان . فالعلوم
والمعارف والأدلة والبراهين محال أن تكون صحيحة نافعة حتى تستنير بنور
الوحي وبرهان الحقيقة ، وتبنى علومها وأعمالها على الإيمان

(الوجه الحادى عشر)

أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة ، فالله يقول : ﴿ قولوا
آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم واسمعييل وإسحاق ويعقوب
والإسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا فرق بين
أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم
استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وفى الصحيح أنه ﷺ قال لمن
قال له : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل
آمنت بالله ثم استقم ، أى على الإيمان . وهؤلاء الملعدون يقولون :
أحوا هذه الأصول والعقائد - التى لا أصح منها ولا أنفع ولا يسعد العبد
غيرها - من قلوبكم وشكوا لتستحدثوا علومها وعقائدها جديدة تجيش بها
القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التى أعرضت عن الحق وعارضته
وتوجهت الى الباطل ، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسوله .

(الوجه الثانى عشر)

أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحققة من القلوب وطلب الشك فيها
محال غير ممكن ، ومن حاول ذلك فهو مكابر ، فالحقائق الصحيحة المبنية
على البراهين الحققة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه ، لأن الحق إذا
تمت معرفته احتل القلوب وثبت فيها واستقر وصارت له السيطرة على كل
باطل ، وزهق الباطل عند مقابلته . ولهذا قال تعالى عن فرعون وقومه :
﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ وقال : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء
إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ وقال عن اليهود : ﴿ الذين آتيناهم

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿ وقال عن كفار المشركين :
﴿ فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ . فهؤلاء
الملحدون إنما غرضهم الوحيد صد الناس عما جاءت به الرسل ، ومقاومة
ذلك بكل طريق ، فرأوا هذا طريقا راج على الأغمار وضعفاء البصائر ،
﴿ وقد مكروا مكرم وعند الله مكرم وان كان مكرم لتزول منه الجبال ﴾
اما اولو البصائر والألباب فانهم يسعون لأزالة ما وقع ويقع في القلوب من
الشبهات والشهوات المعارضة للحق فان الشبهات والشهوات الواردة على
القلوب تضعف علمها ويقينها وإيمانها . ودواء ذلك أن يقابل بالعلم الصحيح
والبراهين الصادقة فان الشكوك لا تثبت لها عند ذلك قال تعالى ﴿ فاما الزبد
فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ وكذلك ازالة
ما يقع في القلوب من الشهوات والأغراض الفاسدة التي يقدمها صاحبها
على الحق والتعصب للمقالات بغير مستند صحيح فدواء ذلك بتوجيه القلب
لقصد الحق الصرف والإخلاص لله وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على
هوى النفوس ، فهذا هو المطلب الصحيح لكل موفق : ان يكون فطنا في
ادراك الحق وفي نفي الشبهات المنافية له وان يكون حسن القصد في ترجيح
ما يرجحه الدليل الصحيح من المقالات .

(الوجه الثالث عشر)

أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخيث الكفر بما
جاءت به الرسل والانحلال عنه وإلا فاهله من اكذب الناس فانهم متمسكون
بغاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون ، واقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على
ما جاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب ، فلو كانوا صادقين محقين
لوجب عليهم أن يحسوا من قلوبهم اقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا
متمسكين بها ومقلدين لها تقليداً أعمى ، فالغرض من كلامهم معروف وهو
قصد الانحلال من الدين الصحيح والتمسك باقوال هؤلاء الضالين

(الوجه الرابع عشر)

قال الشيخ : ومن المعلوم ان الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال ، وانما يحب الدين والعلم واليقين . وقد ذم الحيرة بقوله ﴿ قل افدعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونزد على اعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى قل : ان هدى الله هو الهدى ﴾ وقد امرنا ان نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به والقرآن هو الشفاء والهدى والنور ، والشك والحيرة ليست محمودة باتفاق المسلمين وغاية ما يكون ان من لم يكن عنده علم بالشئ فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طريقه ، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرؤن الناس بمحو الحق الذى فى القلوب لتوجه القلوب الى غيره مخالفون للكتاب والسنة وإلجام العقلاء المعبرين . متابعون لأئمتهم الضالين . انتهى

(الوجه الخامس عشر)

أنه لو فرض وقدر ان الانسان يحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خالياً من الحق والباطل ، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التى جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر ويوزنها بحق وعدل وانصاف وفهم صحيح فانه يظهر له الفرق العظيم ويتضح له ان من سوى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوى بين الليل والنهار والضياء والظلمة ، فكيف بمن فضل الالحاد على دين رب العباد ، فان الحق بطبيعته وبراهينه يحق الباطل ولا يبقى له معه قرار .

(الوجه السادس عشر)

أن الأمور اليقينية والحقائق الصادقة يستحيل ان تقدح فيها الشبهات .

والتشكيكات بوجه من الوجوه ، وقد علم بالأدلة والبراهين المتنوعة نقلاً وعقلاً وفطرة أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق ، وبراهين ذلك لا تحصى كثرة وقوة ووضوحاً ، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف في تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به وأنه الحق والهدى ، وأن كل ما نافاه وخالفه إذا قيس به وقرن معه اضمحل وبطل ، ولم يكن له إليه نسبة بوجه من الوجوه . فتنى علم المنصف ذلك عرف أنه ليس بعد الحق إلا الضلال والمحال ، وأن تأصيل هؤلاء الملحددين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يدل على فساد أديانهم ، وسفاهة عقولهم ، وسوء مقاصدهم .

(الوجه السابع عشر)

أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين :
أحدهما أن يعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وسائر الغيوب ، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التي يتعبد المكلفون بها ويتعاملون ، ويعتقد ذلك ويعمل به .

الثاني معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية ، والوقوف على أسرارها وحكمها . فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق وأرسلت بها الرسل وتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها ، فالسعي في إزالتها من القلوب أعظم معاندة ومشاقة ومحاربة لله ورسله ، وإنما المطلوب الأعلى حصولها في القلوب وثبوتها . فتباً لطائفة زائغة قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسله .

(الوجه الثامن عشر)

أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمحق ما يقع في القلوب

بما ينافي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك ، وإزالة كل شبهة تعرض للقلوب تقدح في هذا الأصل أو تخل به بالبراهين القاطعة الواضحة ، ليكون الإيمان صحيحاً والقلب سليماً من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة ، والقرآن والسنة مملوآن من ذلك . وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك ، فهم أئمة الكفر والجحود حادّوا الله ورسله أعظم محادة .

(الوجه التاسع عشر)

أن من أعظم الأصول التي جاءت بها جميع الرسل ، خصوصاً خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ الإيمان بالقضاء والقدر ، مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة في الدين والدنيا . والكتاب والسنة مملوآن من ذلك . وأن جميع الحوادث مربوطة بقضاء الله وقدره ، ونواصي العباد بيده ، وأنه لا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله ، ولا يدفع السيئات إلا هو ، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله . فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة في مواضع كثيرة ، وهو أصل توحيد الربوبية ، وقصد تقريره في القلوب ، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير . وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يمحذوا قضاء الله وقدره ، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأساً ، لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية ، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة . وكفى بقول جهلا وضلالاً أن يصل إلى هذا الحد الفظيع .

(الوجه العشرون)

أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة ، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه ، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه . فانكروا

من أجل ذلك علوم الغيب كلها ، ووجدوا ربوبية الله وأفعاله ، وعطلوه من صفاته وأفعاله ، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة . وهذا باطل شرعا وعقلا :

أما الشرع فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفهم لما عداها ، وثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها . قال الشيخ : وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم ، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنها ، فهي يوزن بها المتاع الخسيس ، دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض ، وليس سعادتها إلا فيه . فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولم يستدلوا بالآيات البينات التي هي العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالمها وخاب بالشقاوة جاهلها . وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلا أمورا كلية مقدرة في الذهن لا في الخارج ، والعلوم الموروثة عن الأنبياء أجل وأعظم من أن يكون لها التفات أو حاجة إلى علمهم ، بل إدخال علمهم في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيدا ، واليسير منه عسيرا ، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق ، مع قلة العلم والتحقيق . والأمور الموجودة المحققة تعلم بالحس الباطن والظاهر ، وتعلم بالقياس التمثيلي ، وتعلم بالقياس الذي ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم . انتهى .

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس ، فإن مدارك العلوم : الحس ، والعقل ، والأخبار الصادقة . فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله ، وفي ذلك نبيان لكل شيء ، وهدى للخلاق ، وتوضيح للحقائق ، وتنبيه للعقول على

توجيهها لكل علم نافع . ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم ، وهذا ميراث محقق من مكذبي الرسل الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات ، وأنكروا ما لم يحيطوا به علما ، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذى تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفى ما أثبتوه وتثبت ما نفوه ، ولا يزالون هكذا فى أمر مريح حين كذبوا بالحق .

وقد ذكر الله الأسباب التى دعت أمثال هؤلاء الى تكذيب الحق ، وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه ، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ، والكبر الذى فى قلوبهم ما هم ببالغيه ، وتقليد أئمتهم الضالين . فضعف التمييز ، وتقليد أئمة الملاحدة ، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التى مكنت هؤلاء من لزوم الباطل .

(الوجه الحادى والعشرون)

أن هؤلاء الماديين الملحدين لما سدوا على أنفسهم بهذا الأصل الخيىث أكل الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها ، وهى العلوم التى جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية وفطر الله عليها عقول العباد إلا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة ، فسدت هؤلاء هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم ، وحصروا علومهم ومعارفهم فى الأسباب المادية فقط ، وتوسعوا فيها ومهروا واخترعوا وبلغوا حيث انتهت اليه معارفهم وأفهامهم ، وانقطعت بذلك صلتهم بالله ورسله وكتبه وعلوم الرسل وبالهداية الصحيحة المشمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة ، فوقعوا فى أمر مريح ، وتخبطت نظرياتهم . وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا فى المواد الأولية وفى سبب الأسباب ، فينقضون ما اتفقوا عليه ، ويبتطلون ما كانوا أسسوه ، ولا يزالون كذلك ماداموا لم ينفذوا من

الأسباب الى مسيها ، ومن المخلوقات الى خالقها . فما داموا كذلك فانهم لا يستطيعون الاستقرار على رأى جامع لجماعتهم ومسعد لهم فى الدنيا والآخرة . ونهاية ما يصلون اليه ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ نسوا الله فنسيهم وتركهم فى طغيانهم وغيهم وضلالهم وعمهون ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

(الوجه الثانى والعشرون)

أنهم حين أصَّلوا هذا الأصل الباطل الذى جعلوه ميزان العلوم كلها تجرأوا جراءة فظيعة على تحليل حياة الرسل بناء على هذا الأصل وتجرحوا بعقولهم الفاسدة وعلومهم القاصرة الى القدح بالرسل وإسقاط منزلتهم من قلوب السَّماعين لهم المستجيبين لدعوتهم حتى أبطلوا بذلك الوحي والرسالة والمعاد وأنكروا الرب تصريحاً وتعريضاً وتدرجوا بذلك الى القدح فى جميع الأديان ، ولم يجعلوا للرسل ميزة على غيرهم ، بل فضلوا طواغيتهم وفلاسفتهم عليهم . فأصل هذه آثاره الخبيثة ، وهذه ثمراته السَّمية المنتنة الحنظلية ، كيف يليق بمن له أدنى معقول أن يصغى اليه أو يبنى عليه شيئاً من علومه ومعارفه ، فانه مفسد للأديان والعلوم ، ومخبط للأذهان ، فهو اعظم أصول النقي والضلال . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

(الوجه الثالث والعشرون)

أن العلوم المدرَّكة بالحس إذا نسبت الى علوم الرسل - كالعلوم المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأحوال الآخرة والجزاء على الخير والشر وأمور الغيب والإخبار بما كان وما يكون وما يسعد النفوس ويشقيها - : كانت كقطرة فى بحر لحي . فأمور الغيب التى تتوقف على إخبار الرسل ووحى الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة ، إذ ضيقوا

دائرة المعلومات جدا في مدركات حواسهم ، فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقر لهم قرار على أقوال تتفق عليها آراؤهم ، لأنهم أنكروا العلم الحقيقي النافع الذي يزكى النفوس ويسعدها ويرقيها في مدارج الكمال .

ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم ، حيث أطلقوا العلم ، أرادوا به علوم الفلسفة وما تتج عنها ، ونفوا العلم عما سواها ، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق ، وإلا فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه في كتابه علوم الرسل وهداية الوحي المنزل من عند العليم الخبير ، وما سواها فيما علوم ضارّة ، وإما قليلة النفع ، وإما نافعة في أمور الدنيا دون أمور الدين . وقد نفخت روح الكبر في قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدين والدنيا ، فما أضرها وأضر ثمراتها ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع

(الوجه الرابع والعشرون)

أنه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكما فظيحا باطلا ، وهو أن الرجوع الى الماضى رجعية فاسدة ، وأنه يجب إهدار كل قديم . وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، وقالوا إن البشر لم يبلغوا سن الرشد إلا في هذا الوقت الذي طغت فيه علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارّة المهلكة ، حتى تفاقم الشر وعم الطغيان واضمحل الخير ، وهذا من أعجب العجائب ، كيف يكون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وخصوصا سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين - ومن اهتدى بهداهم من أئمة الهدى ومصاييح الدجا وخواص الخلق لم يبلغوا سن الرشد وهم الذين كانوا على الهدى المطلق وبهم هدى الله البشر وأرشدهم الى كل علم نافع صحيح وعمل صالح وخير ورشد وصلاح ، كيف يكونون هم وأتباعهم ومن سلك طريقهم من الهادين المهديين المهتدين لم يبلغوا سن الرشد ، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة

هم الذين بلغوا سن الرشد ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ويكفى تصور هذا القول وتصور أحكامه ولوازمه معرفة بطلانه ، فإن أكبر الدلائل على رشد الرشيد وسفه السفه تصرفاته وتنتاج أعماله وثمراتها .

انظر الى أحوال الرسل وأتباعهم كيف هدوا الى كل عقيدة صالحة نافعة والى كل خلق جميل وعمل صالح ، وكيف نهوا وحذروا عما يضاد ذلك ويناقضه ، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد ، وكيف تم بإرشادهم الصلاح الذى ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح ، فهل تجد علماً نافعا أو خلقاً فاضلاً أو خيراً نامياً أو شراً مدفوعاً أو ضرراً مرفوعاً إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم .

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية الى أسفل سافلين ، وشقوا فى دنياهم كما شقوا فى دينهم وعقولهم . وهذه المخترعات التى تكبروا بها وطغوا وبغواهل توسلوا بها الى الخير والحياة الطيبة والرحمة ، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم ؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذى لا يمكن أحداً إنكاره ؟ وليكن الكبر والاشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فحرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة ، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهو والغرور . فيامن عافاه الله من هذه البالية ومن عليه بهداية الرسل ، احمد الله حمداً كثيراً ، واشكره شكراً متتابعاً ، فإن الله أنعم عليك بنعم لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها ، وسل ربك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيد بالعقل الصريح والفترة السليمة والطرائق المستقيمة

(الوجه الخامس العشرون)

أنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السبعية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، من توحيد الله وعبادته والحث على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذي جاءت به الرسل وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات النفسية ، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم الى شهوات الغنى وإعطاء النفوس منها ، ولم تقف عند حد فاستباحث كل قول وفعل محرم ، ووقعوا في الإباحية المحضة ، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالا منهم . ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فجعلوا يدعون الى هذه الأخلاق السافلة ﴿ ان الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ انظروا الى أعمالهم إن كنتم مرتابين ، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون . كم هدموا من محاسن وفضائل ، وكم أقاموا من شرور ورذائل . ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، ولا تغترر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال ، فإن الذكاء وتوابعه اذا لم يصرف فيما خلق له العبد ، واذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها ، كان ضرراً كبيراً على صاحبه مآله الهلاك كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ فذكر أن جمودهم لآياته أوجب لهم أن لا ينتفعوا بما أوتوا من هذه الإدراكات ، وصارت النعم جالبة للنقم . وقال تعالى : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ فهم عظموا علومهم التي تبجحوا بها وتكبروا وقاوموا

الرسل وسخروا بما جاءتهم به الرسل فأنحرفت علومهم الى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزون

(الوجه السادس والعشرون)

قال الشيخ : ما أخبرت به الرسل من الغيب فهي : أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشهده نحن في هذه الدار ، وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس ، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة ، ويمكن أن يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك . ليست عقلية قائمة بالعقل كما تقول الفلاسفة ، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشهدها أن تلك غيب وهذه شهادة ، وكون الشيء غائباً أو شاهداً أمر إضافي بالنسبة إلينا ، فإذا غاب عنا كان غيباً وإذا شهدناه كان شهادة . وليس هو فرقاً يعود الى أن ذاته تعقل ولا تشهد ولا تحس ، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فانما يكون في الذهن ، والملائكة يمكن أن يشهدوا ويروا ، والرب تعالى يمكن رؤيته بالابصار ، والمؤمنون يرونه في القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص . انتهى .

وهذا يبطل أصل الملاحظة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة ، فانه ثبت بالبراهين القوية صدق الأنبياء عليهم السلام ، وقد تواترت عنهم هذه الأمور وحصل اليقين التام لجميع من صدقهم ، فانكار الملحدين لذلك إبطال لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحها وأوضحها ، وذلك مكابرة منهم ومباهة .

وقال الشيخ : واستدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله تعالى : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً - وتحويلاً ﴾ على أن العالم لا يتغير بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله ، فيقال لهم : انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة ، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثاً وباطلاً بل لأجل الجزاء ، فكان هذا من سنته الجميلة ، وهو جزاؤه الناس

بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه ، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة ، وهو لم يخبر بأن كل عادة لاتنتقض ، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء ، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل ، كما قال : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل ، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة : فتسوى بين المتماثلات ، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل ، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته ، ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين . فهذه السنة تقتضيها حكمته سبحانه وتعالى فلا انتقاض لها ، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضا ، ومن سذنبه التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل . لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح ، فان هؤلاء ليس له عندهم سنة لا تبدل ولا حكمة تقصد ، وهذا خلاف النصوص والعقول ، فان السنة تقتضى تماثل الأحاد وأن حكم الشيء حكم نظيره ، فيقتضى التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم اه

(الوجه السابع والعشرون)

قال الشيخ : ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قرييين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ، لا فرق بين العلوم الثقيلة ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل ، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشموا رائحتها ، ولا في علومهم ما يدل عليها . وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر ترجيحه على الفلسفة - فاذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة الى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به ، لزم أمران :

أحدهما : أنه لا حجة لهم على ما يكذبون به بما ليس في قياسهم دليل عليه .

الثاني : أن ما علموه خسيس بالنسبة الى ما جهلوه ، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة . والرسول أخبر عن أمور معينة ، مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة ، ومثل إبراهيم وأحواله المعينة ، ومثل موسى وعيسى وأحوالها المعينة ، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم لا البرهاني ولا غيره ، فان أقيستهم لا تفيد إلا أموراً كلية ، وهذه أمور خاصة . وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة ، حتى أخبر عن التتر بما ثبت في الصحيحين من غير وجه أنه قال : لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ذلف الأنوف حمر الخدود ينتعلون الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمي معين أو أمة معينة فضلاً عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعائة سنة ؟

وكذلك إخباره بخروج النار التي خرجت سنة ٦٥٥ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلية والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره ، فان ذاك إنما يدل على أمر مطلق لا على شيء معين ، وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجود ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن ، ولا معهم ما ينفي تمثل الأرواح أجساماً حتى ترى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك ، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثابتة بأخبار الأنبياء وبراهين آخر إلا الجهل المحض ، فقد كذبوا لما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله ، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرون بذلك ، وكذلك أئمة الأطباء . وطريق هؤلاء الملاحظة لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء . انتهى .

وقال في سبب الحاد بعض الملحدین : من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزاً عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها ، فاذا جاءته العلوم

الدينية النافعة التي لم تدخل في علمه نفاها فخر دينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالاً عليه . وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافيا لما لا يعلمه ، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدقوا به وأثبتوه . قال تعالى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ وهذا لأن الغالب على آدميين صحة الحس والعقل ، فإذا أثبتوا شيئاً وصدقوا به كان حقاً بخلاف ما نفوه ، فإن غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا به علماً . ويتفرع على هذا الأصل الباطل : الجهل بالإلهيات وبما جاء به الرسل ، والجهل بالأمور الكلية المخيطة بالموجودات ، وبهذا ضل زنادقة الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب ، اذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة ، فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون . انتهى .

(الوجه الثامن والعشرون)

أن يقال لهؤلاء الملحدون المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله : لم أنكروتموها ؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب . فيقال لهم قدروا أنها لم تدخل في ذلك ، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم ، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم ، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها ، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزالون تبثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتفشل مرات ، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الإدراك فكيف تنفون بقية العوالم عوالم السماوات وعوالم الغيب وما هو أعظم من ذلك من أوصاف

رب العزة وعظمته ، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك ، فان هذا النقي باطل باجماع العقلاء ، وإنما هذا مكابرة . واذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال : إن أمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه ، فيقال : أولاً رؤسائكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة ، ولم يزلوا في خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق واقتراق ، ولو قدر على وجه الفرض اتفاقهم على الانكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم بل عرف كذبهم وخطوئهم في ذلك ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم الى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع ، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر ، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم ، وهم متفقون على ذلك . والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم الى آخرهم فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب ، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح ، إنما معهم ظنون كاذبة وآراء خاطئة ونظريات مضطربة وتقليد أعمى للضالين الخائرين ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها وكأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم . ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾

(الوجه التاسع العشرون)

أن هؤلاء الملحدين كاذبون في دعواهم لإثبات كل ما دخل تحت حواسهم ، فانه قد تواترت آيات الرسل وشاهدها الخلق العظيم واعترفوا وخضعوا لها .

وشاهدوا ما فعله الله في الأرض من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم ، وإهلاك الأمم المكذبة . وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، ولم يشتهر وتواتر شيء كاشتهاها وتواترها ، ولم يعترف البشر بشيء من الأشياء أعظم من اعترافهم بها لأنهم شاهدوها رأى عين ونقلتها الأمم قرنا بعد قرن ، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويحجدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم ، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾

(الوجه الثلاثون)

أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدین الماديین الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها الى آخرها : حوادث الطبيعة ، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال ، وإنما هي آلة محضة ، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والابتقان ، وفي نهاية الحكمة والرحمة ، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل ، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم ، وهذوا بما لا شعور لهم فيه ، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم فضلا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرد به بكل كمال وأنه الفاعل لما يريد وأنه مبدع السموات والأرض ومودع فيها من بدائع حكمته وأسرار حمده وسعة عظمته ورحمته وعموم بره وفضله ، وأنه لا يخرج موجود ولا حادث عن قدرته ومشيتته ، وأن رسله صادقون في كل ما أخبروا به وشرعوه ، والحمد لله على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذي جاءت به الرسل ، والعافية من هذا البلاء الذي هو أكبر المصائب على العبد وهو اتباع كل ملحد مارق من العقل والدين

(الوجه الحادى والثلاثون)

أن يقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم - فضلا عن عوامهم ومقلديهم - :
أنتم لا تزالون فى علومكم التى افتخرتم بها . لا تزالون تحدثون نظريات
تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها وتقررونها وتعتقدونها وتجزمون بصدقها ثم
مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكون فيها وربما تجزمون ببطلانها
وتحدثون ما يصادها من النظريات التى باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك
والقبح فيها وهى عرصة للاضمحلال ، وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقا ،
وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين ، فعلمكم العالية عندهم وهذه حالها ومآلها
كيف يسوغ من له أدنى معقول أن يجعلها معارضة لما جاءت به الرسل
من الحقائق الصادقة التى اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب وأيقن بها
الأئمة الفضلاء والهداة المهتدون .

(الوجه الثانى والعشرون)

قد تقرر عند جميع الأمم - سوى هذه الطائفة التى كبرت وباهتت -
صدق الرسل بما كانوا عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الرفيعة وبما
جاموا به من الدين الحق الذى أصلح الله به الدين والدنيا وهدى به العباد
الى كل خير وصلاح وفلاح خاص وعام عاجل وآجل ، وأيدهم بالآيات
البيّنات والبراهين القاطعات التى تواترت تواترا لم يقاربه شئ من المتواترات
حتى تناقلتها الأمم والقرون وصارت فى مقدمة الحقائق وفى أعلى مراتب
الصدق ، وخصوصا إمامهم وسيدهم محمد ﷺ فان جميع الخلق شهدوا
بصدق ما جاء به واعترفوا به وخضعوا : أولياؤه وأعداؤه ، ولو لم يجىء
إلا بهذا القرآن الذى تحدى الله به الأنس والجن : أن يأتوا بمثله أو بعشر
سور أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة وأسلوبه الجليل الجليل وأحكامه
التي هى أحسن الأحكام وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلية المتعلقة

بالخلق والمتعلقة بالخالق ، فمن عرف شيئا من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم عَرَفَ أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابرُوا المحسوسات وباهتوا المعقولات وعاندوا العلوم الصحيحة وردوا المعارف اليقينية وأنهم بلا شك معاندون للحق أو مقلدون للعابدين تقليدا أعمى ، فهم كما قال الله عن أئمتهم : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبه المفسدين ﴾ ، فاذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم : ﴿ ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا . ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

(الوجه الثالث والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملاحدة : ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع وحى من الله جاء على يد الرسولين جبريل ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهو مؤيد بشهادة الآيات والبراهين القاطعة والعقول تهتدى به وتسترشد الى جميع المطالب العالية فتشهد بكمال حسنه وتعترف بحاجتها وضرورتها العظيمة الى إرشاده وتستنير به وتعرف أنه لا سبيل لها الى الوصول الى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة وأنه ليس فى علومها ما يدل على ذلك ، فسلفت لما جاء به الوحي والشرع ، ولم تعبأ بعقول بنيت على الشبه والخيالات ، فانها لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت اليها لم يكن لها اليها نسبة ، وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان ، وهى متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن اليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعريف الطريق الموصل الى رضاه وإبطال ما يضاد ذلك وينافيه ، فابتدأوها من الله واتهاؤها اليه سالمة من هذيانات الملاحدين واقتراء المفتريين ، وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته الى عقل ونقل سواه ، قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴿ ولا يمكن أن يعارضه عقل صحيح ولا علم صادق . ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقول جملة وتفصيلاً ، أو تعرفه جملة ولا تهتدى الى تفصيله ، أو تخبر بأمور لا تهتدى اليها العقول بمجرد ما لا جملة ولا تفصيلاً ، ومحال أن تخبر بما تحيله العقول الصحيحة . وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشرعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم ، وقد تتبع كبار العلماء واساطين الحكماء وخول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك فى جميع الحقائق التى جاءت بها الرسل ، وبرهنوا أن كل ما خالفها فهو ضلالات وجهالات وخيالات حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدین فضلاً عن أولى الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المعتذية بالوحى والهداية النبوية ، فانهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية والجزائية فهو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهدوا به الخليفة ، قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً ﴾ ولما ذكر صفات أولى الألباب قال عنهم : ﴿ ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ الآية .

(الوجه الرابع والثلاثون)

أن أصل بلاء المشركين والملحدین قياس الرب العظيم بالخلق الناقص الحقير ، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثل شئ وأن له المثل الأعلى فى السموات

والأرض وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال وأن ما للخلق من أولهم الى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فانها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت الى عظمة الله وجلاله وكاله ، وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات أعيانها وأوصافها وأفعالها ومن سواه مخلوق ، وأنه مالك الملك المطلق ومن سواه عبد مملوك ، وأنه العليم الذي أحاط عليه بكل شيء ، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، القدير الذي لا يعجزه شيء العزيز الذي علا على كل شيء وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته ، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء ، الآخر الذي ليس بعده شيء ، الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، الباطن الذي ليس دونه شيء ، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعا وقدرًا وجزاء ، إلى آخر ما وصلت اليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصى أحد ثناء عليه ، لو علموا شيئًا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل وأشنع الكذب وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفورا . ان كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ فهؤلاء الملحدون لما لم تصل معارفهم الضئيلة الى شيء من ذلك وحصروها في بعض الأسباب ولم ترتق الى مسبب الأسباب ، ولم يصلوا من المخلوقات الى خالقها ، ظنوا أن ما وصلوا اليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلاً وضلالاً ، ومنهم من كان كذلك ظلماً وعناداً . فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم والسلامة من عقوبة الالحاد التي هي أكبر النقم

(الوجه الخامس والثلاثون)

أن هؤلاء الدهريين لما كانوا يقولون ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

وما يهلكنا الا الدهر ، وما هي إلا الطبيعة تتولد عنها الموجودات والحوادث ، حصروا مداركهم في هذه الحياة الدنيا فادركوا منها ما أدركوا وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب وما أخبرت به الرسل من الغيوب والاحكام ، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدون وامتألت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل ، وساءت قصودهم ، وختم الله على مداركهم القلوب والاسماع والأبصار فلم ينتفعوا بها ، كما قال تعالى ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ الآية ﴿ ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فنعوذ بالله من هذا الكبر الذي هبط بصاحبه الى هذه الدرجات ومنعه من الوصول الى العلوم النافعة والسعادة والفلاح ، وحسن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح . ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : المعلومات المعاينة التي لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحس والعقل ، بل لا نسبة بينها بوجه من الوجوه ، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر ، فانه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة . والمعلومات التي لا تدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس اليها كقطرة من بحر ، ولا سبيل الى العلم بها إلا بالخبر الصادق . وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء ، وأطلعهم منها على ما لم يطلع عليه غيرهم ، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره ، ولهذا كان أكمل الأمم علما أتباع الرسل وان كان غيرهم أحقق منهم : في علم النجوم والهندسة وعلم الحكم المتصل والمنفصل ونحوها من العلوم التي لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل ، وهي كما قال الواقفي على نهايتها : ظنون كاذبة وعلوم غير نافعة ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع ، وإن نفعت فتنعها بالنسبة الى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة الى

الآخرة ودوامها فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلبا وخبرا ، فهو العلم المزكى للنفوس ، المكمل للفطر ، المصحح للعقول ، الذى خصه الله باسم « العلم » ، وسى ما عارضه « ظنا » لا يغنى من الحق شيئا وخرصا وكذبا . وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيت كنه خرصا ، وعلت أنهم هم الخراصون ، وإن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين ، وهو الذى أقام الله به حجته ، وهدى به انبياءه وأتباعهم ، وأثنى عليهم به ، وذكر الآيات الدالة على هذا . انتهى

(الوجه السادس والثلاثون)

أن آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومعجزاتهم التى شاهدها الخلق العظيم ، وتناقضها القرون ، واجتمعت عليها الدلالات المتنوعة : دلالة العقل ، ودلالة الحس ، واضطرار الخلق الذين شاهدها أنها من عند الله ومن آياته وبراهينه ، تهدم الأصل الذى أصله الملاحظة حيث لم يثبتوا إلا ما دل عليه الحس ، فإن أكثر المحسوسات إذا نسبت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها إليها نسبة من هذه الجهة ، فضلا عن بقية الاستدلالات عليها ، فهى من أقوى الطرق وأوضحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله .

قال ابن القيم رحمه الله : وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها ، فإنها جمعت بين دلالة الحس ودلالة العقل ، ودلالاتها ضرورية بنفسها ، ولهذا يسميها الله « آيات بينات » ، فإن انقلاب عصا تلقها اليد : ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت ، وكذلك اليد ، وفلق البحر طرقا ، والماء قائم بينهما كالحيطان ، وتثق الجبل من موضعه ورفع على قدر العسكر العظيم فوق رموسهم ، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكنى أمة عظيمة ، وإخراج الناقة لصالح ، وتصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرا ذا لحم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس ، وإنزال العقوبات المتنوعة على

المكذّبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومن معه من المؤمنين ، وإيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث رآه الحاضر والغائب ويخبر به كما يراه الحاضرون ، وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي ﷺ وهي متنوعة جداً ، وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله ، وصدق رسله واليوم الآخر ، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلهم بها ، كما دلهم بما يشاهدون من أحوال الحيوانات والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو ، وأحوال العلويات : من السماء والشمس والقمر والنجوم ، وأحوال النطفة وتقلبها طبقاً بعد طبق . انتهى .

وفي هذا إبطال لقول من يستهين بمعجزات الأنبياء ويحارى الملحدّين في تحليلها تحليلاً يعلم بالضرورة بطلانه ، وأنه قدح في الضروريات والمحسوسات ، ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثير من أصولهم الباطلة أوصلهم إلى حالة الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيديهم مما هو معلوم بالحس والعقل والخبر والمشاهدة ومنقول نقلاً متواتراً لا يشبهه شيء من المتواترات ، والله تعالى ينوع آياته ويجعلها في كل فن وتصريف لتقوم الشواهد على توحيده وصدق رسله ، ليحيا من حيٍّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، وليعلم العباد أن قدرته تعالى يصرف بها الأمور بأسباب يعرفها العباد وأسباب لا يعرفون وجهها ، وإنما يعرفون تيجتها وفائدتها الدالة على صدق رسله وكذب أعدائه وبطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرسل . والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

(الوجه السابع والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملحدّين الدهريين ما قالته الرسل لأسلافهم ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ قاله تعالى وجوده أظهر الموجودات ، وهو واجب الوجود ، وغيره وجد بعد العدم . وهو تعالى فاطر السموات

والأرض ، فكل الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخلقه وتسخيرها وتديره وتصريفه وأوجدتها بعد عدم ، أمدتها بكل ما تحتاج إليه ، وحفظها من الزوال والاضمحلال ، وهو يحياها ويميتها ويعدمها ويبقيها ويتصرف فيها بكامل الحكمة وبديع العناية ، قد شهدت بوحدانيته جميع الموجودات ، وخضعت لعظمته جميع الكائنات وافترقت إليه جميع البريات في كل شؤونها ، كل يوم هو في شأن : شؤون يديها ويبتديها ، وقد قامت البراهين القواطع التي لا تعد ولا تحصى على هذا الأمر ، وشهدت به الكتب والرسل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة واللفظ المستقيمة ، لا يمكن أحداً له مسكة من عقل أن ينكر هذا إلا هؤلاء الملحدون الذين فسدت عقولهم ومرجت أخلاقهم واقتدوا بكل شيطان مرید كفرعون وأشباهه الذي قال له موسى ﴿ لقد علست ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لا ظنك يا فرعون متبورا ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وحيث خاطب موسى عليه السلام حين أمره بالآيمان ﴿ قال : ومن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فاستدل عليه بجميع الكون ناطقه وصامته وأنه الذي انفرده بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك ، وهدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه المشاهدة . فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به ولا ينكره إلا كل مكابر مباغت ، مثل فرعون وأئمة هؤلاء ، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه ﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ﴾ انكاراً له ﴿ قال - موسى - : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ فكل عاقل لا بد أن يعترف به ، ومن لم يعترف به فانه إما مجنون أو معاند مباغت ، أو ضال مقلد تقليداً أعمى ، فقال فرعون عموها على أهل مجلسه : الا تسمعون ما يقول موسى ؟ فقال موسى ربكم ورب آبائكم الاولين إنكاراً عليهم أنهم أنكروا أمراً لم يزلوا ولا يزالون إليه مضطرين مفتقرين كل وقت ، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الاولين التي لا يمكن

إنكارها ، فهو الذى رباهم بخلقه ونعمه صفاراً وكباراً هم وأصولهم وفروعهم
وسائر الخلق ، ولكنهم باهتوا ، ومن مباهتهم ومكابرتهم رمية لموسى
بالجنون وهو يعلم أنه أكمل الناس عقلاً ، وهو الذى أقامه وأقعدده وأخرجه
فى أحواله كلها ، فقال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون فلما رآه يكابر
ويجحد ربوبية الله للخلق التى لا يمكن المكابرة فيها قال له : أولوجئت بك بشيء
مبين ظاهر واضح قوى دال على صدق وصحة ما جئت به وإن الجاحدين
هم المبطلون ، فذكر الآيات وما جرى له مع فرعون وكيف اعترف السحرة
كلهم أنه من عند الله وأثر فيهم وآمنوا الايمان الصحيح الصادر عن قوة
وبصيرة وخبرة تامة ولم يبالوا بالمعارضات وما أصابهم من فرعون ، وظهر
الحق وبطل ما كانوا يعملون . فهذه فى الحقيقة حالة هؤلاء الملحدین مع
جميع الرسل ولقد قص الله علينا من نبأهم ما فيه عبرة للمعتبرين وحجة على
المعاندين ، وكفى فى الكتاب والسنة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك
فمن جحد ذلك أو شك فيه فبأى حقيقة يعترف ؟ ومن أنكره فبأى حديث
بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه
ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم

(الوجه الثامن والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملحدین الماديين : هاتوا برهانكم وميزانكم الذى
تزعمون أنه ميزان الحقائق ، وقابلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدين .
زنوا الحقائق مفصلة حقيقة حقيقة ، وإعروضوها على ذوى العقول الصحيحة
والأذهان والمعارف الصادقة فانه يتضح عند ذلك أنهم كانوا كاذبين مبطلين
أول ذلك أن يقال : قابلوا بين أى موجود من الموجودات التى
اختصت بمبانيها أو التى اشترك بنو آدم فى إثباتها وبين وجود الخالق ،
فان وجود الخالق جل جلاله وتقدس أسمائه وجود واجب ، مستحيل
ومتنع ثبوت نقيضه ، فهو أعظم الموجودات وأظهرها ، بل لا وجود لشيء

من الأشياء إلا بإيجاده ، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقر غاية الافتقار إلى ربه ليس لشيء منها من نفسه وجود ، فليس لها إلا العدم ، فهي حادثة بعد العدم ومضطرة إليه كل وقت بعد الوجود ، لو قطع عنها الأمور التي حفظها بها وأبقاها لاضحلت ، والله تعالى وجوده مركز في العقول والفطر ، معلوم بالضرورة وبالطرق التي هي أقوى الطرق الدالة على الحق ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ فخصر الحق فيه إذ هو الحق الواجب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ولا حق لشيء من الأشياء إلا باستناده إليه فهو واجب الوجود الموجد لكل موجود

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون عن الحق الذي هو أظهر الأشياء وأوضحها ، ولكن العلة والسبب الذي حملهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ فتكذيبهم بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، وبجميع الرسل ، منهم من قبول الحق الذي لا حق غيره وتركهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون ، ثم ذكر وعيده لهم بقوله ﴿ فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ الآية . زنوا أيها العقلاء ما ثبت لربكم العظيم من الوجدانية في أوصاف الكمال ، والتفرد بكل جلال وجمال ، والتفضل بكل خير ونعم جزال ، وما شاهدته الخليفة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات في غاية الإحكام والانتظام العجيب الذي حسب العقول والأفهام ، إذ تهتدى إلى ما بثه في المخلوقات من حسن الخلق وبديع الصنع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التي لا تحصى المترتبة على ذلك ، ثم انظروا إلى ما نشره من رحمته التي وسعت كل شيء ، فما من مخلوق يستغنى عن رحمة خالقه طرفة عين ، فما بالعباد من بعد ظاهرة ولا باطنة خفية أو جليلة إلا من الله ، وهو الذي لا يأتي بالخير

والحسنات إلا هو ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو ، وهذا من أكبر الأدلة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره

وانظر ما فى العالم العلوى والسفلى من الحوادث والتدبيرات المتنوعة والأفعال العظيمة وما تدل عليه من عظمة مدبرها وجلاله وكبريائه ومجده ، وأنه المتفرد بالوحدانية والكمال الذى لا غاية له . وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة ، فهل يستوى من أثبت ما دلت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل ؟ وهل يستوى الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، والقيام بحمده وذكره وشكره والإجابة إليه التى هى أفرض الفروض التى جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب ؟ أم الأمر بضد ذلك من الشرك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها

وهل يستوى ما أمرت به الرسل من الصدق فى الأقوال والأفعال ، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمر بالبر والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم ؟ أم الأمر بضد ذلك ؟ وهل يستوى الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، والنهى الفحشاء والمنكر والبغى على الخلق فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، والتعاون على البر والتقوى ، أم الأمر بضد ذلك ؟ وهل تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الاسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذى هو أساس الخيرات والصالح المطلق ؟ وهل إذا أطلق الماحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التى لا ينفع غيرها : أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء ، وأنها قديمة والقديم يجب أن يزهد

فيه ويحذر عنه ؟ هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح ؟ وهل يستغنى العباد عنها في حالة من أحوالهم ؟ وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه من معرفة الله وعبادته والإجابة إليه والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والاحسان وما نهت عن ضده ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد عرف أن الخير والفلاح والصلاح الديني والديني العاجل والآجل الظاهر والباطن مع ما دعت إليه الرسل ، وإن الملحد ينظر إلى دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل والحث على كل خلق رذيل ومآلها الفوضىّة التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع ، وهذا هو الواقع بلا ريب ، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك ، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمه ، وأن يثبتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه

ومن أعجب العجائب أن كثيراً من الكتاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثير من مشاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحي ومشكلة الإلحاد الذي جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلها ومداراتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق من جميع الوجوه ، بل تركوهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يترددون ، وازدادت المشاكل التي يريدون حلها مشاكل أخرى تعذر حلها كما هو المأمول ، فكل

مشاكل الحياة إذا لم تبني على الإيمان والدين الصحيح ازدادت تعقداً وعظم ضررها وبعد خيرها ، فلو أنهم أسسوا معالجاتهم المتنوعة على الدين الصحيح ووجهوا النشء إلى عقيدته والتخلق باخلاقه ، لأثمرت مساعيهم كل زوج كريم ، ولتوجهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح ، وانصرفت عن الشر والاضرار والأعمال القباح ، فالفساد لا يسود إلا إذا عدم الإيمان الذي ينافيه ولا يجمعه

(الوجه التاسع والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملاحدة الماديين : من الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة ، ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع ، ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسناتها وحسن نظامها ؟ فسيجيئون إن هذا كله أثر المصادفة وأعمال الطبيعة العمياء التي ليس عندها علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف وهذا قولهم الذي صرحوا به واقتدوا فيه بالمتبردين من أئمتهم الضالين حينئذ يتضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصياني الذين لا يعقلون ، فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضى ، لزالَت السموات والأرض واختبأت العوالم ﴿ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ، وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطللة لقولهم أجاوبوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا ، احتمالات في غاية الضعف والوهال . فيأعجبا لمن اغترَّ باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراعتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فابطلوها وانكروها ، ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية فإنها لا تغني عن الحق شيئاً ولا تدل على فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، وجعلنا لهم

سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿ والله تعالى جعل للعقول حداً لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته ، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جداً في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم ، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتديره ، ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها ولا يحدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها ، سبحانك هذا هذا بهتان وجرم عظيم ﴾ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ فكيف بمن جحدته ونفاه بالكلية

(الوجه الأربعون)

أن يقال : من أكبر الحياتات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدينه ، فانهم يبحثون في الموجودات بحوثاً ضافية كثيرة ويستخرجون منها فوائد كثيرة ، ولكنهم مع ذلك لا ينجدهم يذكرون الله فيها ولا يقدررون قدر خالقها ومدبرها ، ولا يشكرون من أنعم بها ، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها ، حتى يظن الظانون بل يظن كثير من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها ، فيقعون في الجحود والانكار الصريح ، ويصيرون في خبط وخط من جهة العقيدة الصحيحة ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريب ﴾ فاهمال أصل الأصول من علمهم وذكركم وتوجيههم وتوجيههم أضل خلقاً كثيراً ، فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها ، والموجودات على موجدتها ، والنعم على مسديها والمتفضل بها لهدوا إلى صراط مستقيم ، وسلخوا من الحياة وطرق الجحيم

(الوجه الحادى والأربعون)

أن الله أيد رسوله محمدا ﷺ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة ، كل واحد منهما يشتمل على براهين كثيرة قطعية تدل على وحدانية الله وصدق رسوله ، أحدهما شهادة الله له ، والثانية هذا القرآن ، قال تعالى ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة . قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ فأما شهادته لرسوله ولما جاء به فبقوله الذى أنزله فى كل كتاب وعلى لسان كل رسول وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب ، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد ، وإظهار دينه على الدين كله ، وبما أنزله فى شرعه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصالح المطلق فى جميع الأمور ، فابق خير إلا أمر به ولا شر إلا نهى عنه وحذر ، ولا طيب إلا أحله ، ولا خيث إلا حرمه ، وذلك فى الأصول والفروع ، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التى هى أعلى الأوصاف وأكملها ، فجمع الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقاً فى الكمل من الخلق ، وفى جميع الشرائع ، وهى مشاهدة محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم لا يمتري فيها إلا جاهل أو مكابر . وأما شهادة هذا القرآن فان الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدى به الإنس والجن ، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدرحون به فى هذا الدين لبلاغته العظيمة وحسن أسلوبه وإخباره بالغيوب وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الدينى والدينوى ، وما حذر عنه من الشر والاضرار والعقوبات العاجلة والآجلة ، وما كان فيه من الأحكام التى تصلح لكل زمان ومكان وما شرع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم إلى غير ذلك من آيات القرآن التى لا يمكن أن يعارضها علم صحيح ولا عمل نافع ، وكل خير لا شر فيه فانه من أحكامه ومما دل عليه ، فليأت

المنكر بمثال واحد صحيح خارج عن هذا الأصل . فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوجدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق ما جاء به الرسول ، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين ، لأنه إذا اتضح الحق علم يقينا أن ما خالفه باطل فإذا بعد الحق إلا الضلال ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾

فالحمد لله على ما بينه لعباده من الآيات التي لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفة متنوعة ، شاهدة بصدقه وصدق رسله ، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله

(الوجه الثاني والأربعون)

النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقى أحوال الحياة والتطورات المتنوعة ، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة . فإنه لا بد للأفراد والجماعات من حصول نعم ومسارٍّ وحن ومضارٍّ ، فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النعم والمسار بشكر المنعم والثناء عليه بها والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية وأداء حقوق النعم من كل وجه ، وعند المكاره يأمر بالصبر والرضا والاحتساب ورجاء الأجر ، مع السعى في دفعها قبل نزولها ، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب في كل الحالات وهذه هي الحياة الطيبة ، مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هي غايتهم : لها يعملون ، ولها يطلبون ، ولا غاية لهم سواها ولا إيمان لهم بغيرها ، فانهم يتلقون التطورات المختلفة

كما تتلقاها البهائم بقلوب جشعة ونهم كنهم الأنعام أو أعظم : لا يشكرون على النعماء ، بل يكفرون وييطرون ويطغون ، ولا يصبرون على المحن بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم ، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة . قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ فآثار الإيمان الصحيح في العاجل والآجل خير وسعادة وفلاح ، وآثار الجحود شر وضرر وعواقب وخيمة

(الوجه الثالث والأربعون)

يقول الملحدون : الترقى شامل لكل شيء . وقصدهم بذلك إبطال الأديان وأن أفكارهم المنحرفة عن الحق مازالت تترقى حتى في نبذهم الدين واختيارهم للجحود ، وهذا تكذبه الأديان كلها ، والواقع يشهد بكذبه ، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقى المشاهد الآن إنما هو منحصر في الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية ، وأما ترقى الأرواح والأخلاق فانه بالعكس : فان المادة التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقى ترقيا عظيما وخصوصاً في هذا القرن ، وأما الأديان والأخلاق فانها في هذا الوقت هبطت هبوطاً عظيماً . ولهذا لما كان النوع الأول خالياً من الدين والإيمان صار هذا الترقى الدنيوى الصناعى ضرره كبيراً من وجهين :

أحدهما : أنه صار سبباً لاغترار كثير من الخلق ، وظنوا بجهلهم أن الترقى الدنيوى دليل على أن أهله أولى بكل خير من غيرهم . وجعلوا بل ضلوا ضلالاً مبيناً ، فان الانسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل

الوجه الثانى : أن هذه المخترعات حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتب عليها من الحروب التي

لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك ، وعجز ساستها وعلمائها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيبة ، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر ، وهذا أمر حتم لا بد منه وجريان الأحوال يدل عليه ، فالخير كله في الدين الصحيح ، والشر كله في الإنكار والجحود . والله أعلم . يؤيد هذا ويوضحه توضيحاً بيناً واقعاً :

(الوجه الرابع والأربعون)

وهو أن الماديين - رؤسائهم وعلماءهم - لزالوا مكرسين علومهم وجهودهم وأعمالهم في حل مشاكل الحياة وقد عجزوا عنها كل العجز ، فكلموا مشككة نتج عنها مشاكل ، وكلما وجهوها من جهة تبين فيها النقص والخلل والاضطراب . أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ فإنه هو الطريق الوحيد الذي تنحل به جميع مشاكل الحياة واحدة بعد الأخرى ، وتزول به الشرور والأضرار ، وتحصل به الخيرات

ولنذكر نموذجاً من المشاكل التي اضطرب فيها الخلق اضطراباً عظيماً ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيثوا إلى الدين . فمن أعظمها مشكلة العلم ، فإنه إذا صح صحت العقائد والأفكار وصلحت الأعمال المبنية عليه ، وقد كانت شريعة الاسلام تحض على العلم وترغب فيه ، وتأمّر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة في أمور دينهم وفي أمور دنياهم ، ومع حضها وترغيبها في العلوم فقد تكفلت ببيانها وتفصيلاتها ، فقد بين الله في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد والأخلاق والأحكام والأصول والفروع والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلاً بعد ما أصلتها تأصيلاً ، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد وهدت إليها وأرشدت لها العباد ،

فما من علم نافع إلا بينته . وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم ، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ فجمع في هذه الآية بين علم المسائل الصحيحة وهى الحق النافع ، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم ، المبرهنة عن جميع المعارف وأما الماديون فهم يخصصون بالعلم : علوم الدنيا التى هى وسائل لغيرها ، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التى لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرها حتى تستند وتعتمد عليها ، وبهذا تخطت علومهم وبقوا فى أمر مريج متناقضين ، متضاربة آراؤهم غير مستقرة أفكارهم ، فلم يحلوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه ، بل علومهم القاصرة أطمعتهم واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين

ومن المشاكل : مشكلة الغنى والفقر ، وقد تقدم أن هذا الدين حلها حلا تتم به الأمور وتحصل الحياة الطيبة وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة فى أسباب الرزق المناسبة لكل زمان ومكان وشخص ، فقد أمر بالاستعانة بالله فى تحصيلها ، وأن تجتنب الطرق غير المشروعة ، وأن تقوم بواجبات الغنى المتنوعة ، وكذلك عند حلول الفقر أمر بالصبر وتلقى ذلك بالتسليم وعدم التسخط ، مع السعى فى طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال ، ونهى عن البطالة والكسل الذى يضر فى الدين والدنيا ، ومع أمره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له فقد نهى عن ظلم الخلق فى دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثب على حقوقهم بغير حق كما هو دأب الفقراء للذين لا دين لهم

ومن ذلك مشاكل السياسات الكبار والصغار أمر بحلها ، وذكر الطرق الموصلة إلى ذلك بفعل ما توضححت مصلحته وترك ما تبينت مفسدته ، المشاورة فى الأمور المشككة والمشتبهة فى كل قليل وكثير ، وهذه : أصول

لا يمكن بسطها في هذه الرسالة المختصرة ، ولكن نموذج منها يكفي اللبيب
ومن ذلك مشاكل الحقوق والمعاملات ، فقد أتى الدين فيها بغاية العدل ،
وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها : الحقوق الراتبية والحقوق
العارضة ، وهى فى أكمل ما يكون من الحسن ، وبها يندفع الضرر والشر
والخصام ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾
وبالجملة فما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة إلا إذا بنيت على الشريعة
الاسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها ، وصلحت من جميع
الوجوه ، لافرق بين مكافأة المحسنين فى الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين
كذلك . والله أعلم

(الوجه الخامس والأربعون)

أن هؤلاء الملحدين رَوَّجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا
سمعها الجاهل هالته واغتر بها وظن صدقها ، وكل منصف عارف يعرف كذبها
وبطلانها ، فزعموها تجديد آورقياً وتقدماً إلى الأمام ، وما أشبه ذلك من
العبارات التى يغتر بها الجاهلون . وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقى
روحى ومادى فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر
والفساد ، فان الدين كما أمر باصلاح الدين فقد أمر باصلاح الدنيا الإصلاح
الحقيقى النافع عاجلاً وآجلاً ، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدَّر مفتر .
فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح كما قد فصل فى موضع
آخر ، فحاسن الدين الإسلامى أرسى من الجبال الرواسى وأعلى من النجوم
الدرارى وأجلى نورا من الشمس المشرقة ، لا يقابلها ضدها ولا يقاومها
الباطل المبهرج ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾
ولولا أن الباطل قد زخرف وروج بالعبارات والدعايات المتنوعة ونصرت
الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب ، ولعرف الناس أنه أعظم

ظلمة من الليل وأضعف من كل ضعيف . وإذا أردت أن تعرف ذلك فقابل بين أصول الدين ومسائله وما يرغب فيه وما يحذر عنه ، وبين ما يناقضها من أقوال أهل الإلحاد ، تجد أقوالهم تضمحل وتتلاشى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة ، فإن الضد يعرف بضده ، فلولاً الليل ما عرف النهار ، ولولاً الباطل لما ظهرت براهين الحق هذا الظهور في قوتها وحقيقتها ووضوحها وصدقها وحسنها ، وهذا من الحكمة في مقابلة الباطل للحق ، كما أن من الحكمة أن يتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من ضده والصحيح من الفاسد ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ﴾ وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحق يشبه بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض في غاية الإحكام والإتقان ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وتجد الباطل يبطل بعضه بعضاً وأهله في غاية التناقض ، بل تجد الواحد منهم متناقضاً متهافة أقواله ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دل عليه من الكتاب والسنة وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة والعقول الصريحة قال تعالى ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ فالحق مسائله هي الصادقة النافعة وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة

وأما ضده فإن مسائله باطلة وضلال ، وحدوده في غاية القلق والالتواء والصعوبة والهدر الكثير الذي ليس له حاصل ولا معاني يحصلها القارىء بسهولة ، وإذا وصل إليه وجده ﴿ كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ : ظلمة الضلال والجهل المركب والبسيط ، وظلمة الكبر والغرور

(الوجه السادس والأربعون)

أن يقال : إنه ممتنع كل الامتناع ومستحيل أن تهذب النفوس

وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها ، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك ، فانها مع تطورها وتجرها عجزت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذى يتوقف عليه صلاح البشر ، وإنما الذى يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الاسلامى ، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذب الأفكار وحات على الفضائل وزاجر عن الرذائل ، فروح مادعا إليه الدين الإيمان بالغيب الذى يدخل فيه الإيمان بالله وبماله من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال ، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حسناتها وسيئها التى لا تعرف إلا من جهة الرسل ، فعلم بهذا أنه يتعذر الإصلاح الحقيقى بغير الإيمان الصحيح والدين الاسلامى ، فعلوم المادة وإن ارتقت فوق ما يعمله الناس أضعافاً مضاعفة فانها لا تبلغ قريباً من علوم الأنبياء ، ولا تصل إلى ما وصلت إليه ، ولا تدعن لها النفوس ، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فان النفوس لا تدعن إلا عند إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبدون ذلك يتمتع الإذعان كما هو معلوم من الطباع البشرية

(الوجه السابع والأربعون)

القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلة الدالة على وحدانية الله وكلامه ، وصدق رسله ، بأنواع إعجازه وبلاغته وأسلوبه وتأثيره ، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلية ، واتفاقه وعدم اختلافه ، وتشريعه ، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر ، وانه على اتساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئاً من أصوله ، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله ، وكون الذى أتى به لم يكن يقرأ كتاباً ولا يخطه يمينه ولا تعلم من أحد ، بل زكى به العباد ، وكمل به الفضائل ، وعليهم ما لم يكونوا يعلمون .

وهذه المجمعات تحتاج إلى تفصيل كثير ، فمن نظر إلى هذا جزم جزماً لا يمتري فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلاباً عظيماً لم يعهد له مثيل ، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها ، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعتها وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح ، فهو الدليل والبرهان ، وهو الحجة على توالي الزمان ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ فالقرآن زلزل بتأثيره عقائد الجاحدين ، وأقضى مضاجعهم ، وبذل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أصلح العقائد وأنفعها ، وأخلاق هي أحسن الأخلاق وأحمدها ، وأعمال هي أكمل الأعمال

(الوجه الثامن والأربعون)

من عرف حال النبي محمد ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العالية ، وما أعطى من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق ، وما أيد به من الآيات والبراهين المتنوعة من كل وجه لا تعد ولا تحصى ، كل جنس من آياته ، بل كل نوع ، بل كل فرد منها ، يدل أكبر دلالة على أنه رسول الله حقاً وأن ما جاء به حق وما خالفه باطل ، فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول في نفسه وفي شرعه وفيما أيد به يعرف به بطلان أقوال الملحدين ، وبطلان مذهب الماديين المنكرين لله ولرسوله ودينه ، وأن هذا الإنكار منهم أكبر برهان على ضلالهم وجهلهم البليغ بالحق المبين ، وتفصيل هذا الوجه يستدعي مجلدات ، ولهذا كل نوع من آيات الرسول صنفت فيه المؤلفات على حدته فازداد به المؤمنون إيماناً وقامت الحجة على المعاندين المنكرين ، وقد قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ولكن هؤلاء الماديين يشاهدون من آيات الله ما يضطر كل عاقل إلى الإيمان واليقين ، وهم يتلصسون لها التحريفات

والتحليلات الباطلة ليدخلوها في علمهم القاصر وينسكروا بذلك قدرة الله ، خصوصاً في هذه الأوقات التي ارتقت فيها علوم المادة ارتقاء هائلاً وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته ورحمته ، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم : ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فصارت علومهم ضرراً عليهم ، وخطراً عظيماً على جميع البشر : ضرراً عليهم لأنهم تكبروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزأوا بما جاءت به الرسل ، وصارت خطراً على جميع البشر بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير : تدمير النفوس وتدمير الأخلاق ، نسأل الله العافية والسلامة بمنه وكرمه

(الوجه التاسع والأربعون)

أن يقال لهؤلاء المحدثين القادحين في الدين : قد علم أولو الألباب والنهى وأهل البصائر والعقول أن دين الإسلام الذي جاءت به الرسل ثم جاء به محمد ﷺ مكملًا متممًا معهما هو : دين الفطرة السليمة والحكمة العلمية والعملية والعقل والفكر والبرهان والحجة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح ، كما وصفه الله ورسوله في آيات كثيرة وأخبار صحيحة ، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس في هذا الدين واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة ، يعلم به علماً يقينياً لا شك فيه أنه الحق ، وما ناقضه فهو الباطل ، فهذه الأوصاف التي وصف بها الدين وحققها المطابقة والمشاهدة تضطر العقلاء إلى الجزم بأخباره ، والتحقق بأخلاقه وآدابه ، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوعة ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

(الوجه الخمسون)

أن الإصلاح العلمى الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا ، بأنواعه من جميع الوجوه التي جاء بها محمد ﷺ مع تنفيذه عملاً من أكبر الأدلة على

وحدانية الله وأنه الحق وقوله حق ورسله حق ودينه هو الحق ، فان البشر - الأمم السابقين واللاحقين - لم يشهدوا لهذا الاصلاح نظيراً ولا مقارباً بوجه من الوجوه ، والاستقراء والتتبع أكبر شاهد لهذا الأمر ، وهذا البرهان الواسع الكبير بما تضمحل معه جميع أصول الملحدين ، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده وما لم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع والحمد لله رب العالمين ، وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تنفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين ، وإذا شككت في هذا فانظر آثارها وما ترتب عليها من الشرور التي تفاقم شرها وتعذر حسمها وعظمت فجائعها وقلت رحمتها وعدلها ، وهي كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم ، لأنها بنيت على الكفر والإلحاد ، والجحد لدين رب العباد ، فصارت ملازمة للشروط والفساد

(الوجه الحادى والخمسون)

قال الله تعالى : ﴿ إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ فذكر وحدانيته التي هي أظهر الأشياء وأوضحها ، وان الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين : قسم سد على نفسه باب الايمان بالآخرة فانسدت حوله أبواب الهداية فصارت قلوبهم منكرة لأظهر الأمور وأعظمها الذى وجوده وصفاته أوصاف واجبة لازمة يستحيل ضدها ، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهراً وباطناً فهم ملحدون متمردون وصفهم الإنكار والاستكبار ، ومن كان على هذا الوصف فانه قد برهن على مكابرته ومباهته ولو جاءته كل آية وبرهان لم يؤمن ولم ينقد وأما القسم الثانى : فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعلمون أن البشر لم يخلقوا سدى مهملين ، بل خلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم ، فهؤلاء قلوبهم معترفة بالله مومنة بوحدانيته : وحدانية الذات ووحدانية الصفات ، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهراً وباطناً ، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا

من الفضل والكمال البشرى ما شهد لهم به الواقع والتاريخ والمحسوس من الكمال العلمى والعملى والرشاد والإرشاد ، فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين فى أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ فى هذا الجانب الرسل العظام وأصحابهم الكرام وأئمة الهدى والأحبار وطبقات العلماء وأكابر العارفين وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين ، بهم قام الدين وبه قاموا ، وبهم صلحت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه . وفى الجانب الآخر : كل ملحد زنديق وكل جبار عنيد الذين قال الله فى وصفهم ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ فمن لم يؤمن بالله وبآياته فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿ ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ، وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ جزاء لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها ، وبهذا الإنكار والاستهزاء سلبوا منافع عقولهم ومرجت أخلاقهم وسفهت آراؤهم وصارت البهائم أحسن حالة منهم حتى ولو كان لهم اذهان وذكاء وعقول كما قال الله عن أمثال هؤلاء : ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

(الوجه الثانى والخمسون)

ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ قال : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فلينته وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وليقل : آمنت بالله وهذا مصداقه ما وقع من ملاحظة الماديين الذين لا يزالون يخوضون

فى مادة المخلوقات ولم نظريات متنوعة كلها خاطئة لأن مبناها على الخرص والظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً بل على خلاف المعلوم شرعاً وعقلاً وفطرة فيتكلمون فى علل الموجودات علة بعد أخرى ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالفها بل أطلق عليه كثير من هؤلاء المتجربين أنه علة العلل ، فقطع النبى ﷺ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم ونبه على جهلهم وجرائمهم ، وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاى والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهى إلى موجد واحد أحد فرد صمد الأول الذى ليس قبله شيء الموجد لكل شيء وأمر بالتعوذ من الشيطان الذى يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة وبالإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه ليس له مثل ولا نديد ولا مشارك فى شيء من كماله . وبما أرشد إليه ﷺ يندفع ما قاله الملحدون ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرصون الذين ينكرون ما لا يعلمون بل يجحدون ما هم به مستيقنون وما زال الشيطان يزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال فهم فى غيهم يعمهون

(الوجه الثالث والخمسون)

أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ووصفوه بأوصاف الرب وهذا أمر لم يصل إليه أحد من بنى آدم إلا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخرجوا من مكابرة المحسوسات ومباهة المشاهدات ، فان كل أحد يعلم حق العلم أن الانسان ناقص من كل وجه وان ما به من علم وقدرة فتعليم الله واقداره وان الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حداً لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه لأنه فى طور البشر فكما أن الله هو الذى خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً فهو الذى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وأسباب القدرة البشرية . وأما القدرة الربانية والعلم

الإلهي فمن زعم أن أحداً من الخلق يشارك الله في شيء منها فهو مبرسم مجنون وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر ولا لتعليمه لهم فيها أثر فאלله خلقكم وما تعملون والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، فما حصل من قدرة البشر فباقداره ، وما حصل لهم من علم ديني وديوي فبتعليمه . ومع ذلك فعلمهم وقدرهم مهما بلغت وترقت فإنها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته ، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق : لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وقال موسى للخضر حين رأى غصفورا نقر بمنقاره من البحر : ما نقص على وعليك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا الغصفور . وفي الصحيح مرفوعاً أن الله يقول « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا غمس في البحر ، فبأ لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه ، وما أعظم جهلهم وضلالهم وعنادهم وجرائمهم والله تعالى للطاغين بالمرصاد

(الوجه الرابع والخمسون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين ، ما قاله الله لأخوانهم المكذبين ، الذين هم دونهم بدرجات مبطلات كل احتمال يوجه للقدح في الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون ﴾ إلى آخر الآيات هل هذا الرسول محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعر أو كاهن أو متقول أو ساحر أو ما أشبه ذلك مما تضاربت به أقوالهم أو هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم وأخشاهم لله وأجمعهم لكل فضيلة وأبعدهم من كل رذيلة كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر

وهذا هو الواقع ، أم الذى أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامهم وعقولهم فبئست الأحلام والعقول التى تجحد أكبر الأشياء وأوضحها وتكذب بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار ؟ فعقول وأحلام هذه آثارها مسلوبة النفع مكفول لها الشر والضرر ، أم الذى حملهم على هذا التكذيب لاحد له ولا يتورع صاحبه عن محرم ولا يتمتع عن جريمة . والطغيان مرد لأصحابه مهلك لهم لا محالة . أم يقولون انه ﷺ تقول هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ، وهذا التحدى قائم من حين نزله الرب العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كل منكر له مكذب له أن يأتى بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية . أم الذى حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيء بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادقة ، فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل ، أم خلقوا السموات والأرض وما فيها من العوالم التى لا يعلمها إلا الله ، فانهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيء وأعجز شيء أم عندهم خزائن رحمة ربك يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويحكمون بما شاءوا ، فهم مسيطرون على الملك والمملكة ، كل هذا يعترفون ببطلانه فهم يعترفون أنهم فقراء بمالك لا يملكون لأنفسهم نقعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا دفعا للكارية ولا جلبا للصالح ، أم الذى حملهم على هذا البهت والتكذيب الكيد للرسول ولدينه ونصر باطلهم حتى بالطرق التى يعرف كل عاقل بطلانها ، وهذا هو الواقع ، وان الذى ينتصر للباطل وقد صمم على ذلك لو جاءته كل آية لم يؤمن ولم يهتد ، لأنه وطن نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق ، أم الذى حملهم على ذلك أن لهم إلهاً غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يعبد مع الله ويرد الحق لأجله ، فسبحان الذى اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون ، فهو الإله الحق الممين الذى له جميع أوصاف الكمال ، ويده التدبير للعالم العلوى

والسفلى الذى لا يستحق العبادة إلا هو ، والذى لا يأتى بالحسنات والخيرات إلا هو ، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو ، الذى ليس له ند ولا كفو بوجه من الوجوه ، فذكر تعالى كل احتمال يوجهه أعداء الرسول إلى رسالته ورد ما جاء به وأن ذلك باطل قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة . وهذه الاحتمالات التى ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياء ولا خجل ، تشابهت قلوبهم فى الكفر فتشابهت أقوالهم ، فلا دين ولا خلق ولا عقل ولا حياء من الخلق فى هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التى قالوها ، فلم يبق إلا أن يعذبهم الله ، قال الله تعالى فى آخر هذه الاحتمالات : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾

(الوجه الخامس والخمسون)

أن يقال لهم : من الذى خلق الأرض والسماوات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بث فيهما من دابة ، والذى أنزل من السماء رزقاً فأنبت به من كل زوج كريم متاعاً للعباد ولأنعامهم ، ومن الذى أحكمها غاية الإحكام ، وأودع فيها من بدائع حكمته ولطيف صنعته وأنواع جوده وكرمه ورحمته ، وجعلها أدلة وبراهين على وحدانيته وقدرته وعظمته ، ومن الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكمل ظاهره وباطنه بالقوى المتعددة التى يحتاج إليها ، وعلمه كيف يهتدى إلى مصالح دينه ودنياه ، فعليه البيان العلى والبيان اللفظى والبيان الرسمى حتى تم له من الخير والصلاح والهدى ما لم يتم لغيره ، وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض يستدل بآياتها ويستخرج منافعها ويستدر خيراتها ؟ فان قالوا : هذا عمل الطبيعة ، وهذا فعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذى لم يبلغه ضلال أحد ، فأى عمل للطبيعة التى توجب هذه الآثار العظيمة ؟ وأى أثر جعلها تعمل هذه الأعمال ؟ وأى عقل وفكر هداها إلى هذه الأمور ؟

أما أهل العلم والبصائر والألباب ، بل وجميع من له نوع من العقل .
 فيقولون : هذا تقدير العزيز العليم ، وهذا صنع الله الذى أتقن كل شئ
 وأحسن خلقه ، بديع السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

(الوجه السادس والخمسون)

قد شاهد الخلق من جزاء الله للطائعين ، وهم الرسل وأتباعهم ، وعقابه
 للعاصين المكذبين له ولرسله ، آيات بينات وبراهين قاطعات شاهدها رأى
 عين ، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها القرون قرناً بعد قرن وتواترت تواتراً
 لم يتواتر له نظير من كل وجه ، فمن الذى أرسل الطوفان العظيم الذى غشى
 الأرض والجبال وأهلك الله به المكذبين لنوح أجمعين ونجاه ومن معه فى
 الفلك المشحون ؟ ومن الذى أرسل على عاد الريح العقيم ما تذر من شئ
 أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ونجى الله من هذا العذاب هوداً ومن معه من
 المؤمنين ؟ ومن الذى أرسل الصيحة والرجفة على ثمود فأصبحوا فى ديارهم
 جاثمين ، ونجى الله صالحاً ومن تبعه من المؤمنين ، ومن الذى جعل النار برداً
 وسلاماً على إبراهيم ، وقلب على قوم لوط ديارهم ، وأهلك قوم شعيب
 بعذاب الظلة ؟ ومن الذى فلق البحر حتى صار اثني عشر طريقاً وعبره موسى
 وقومه ناجين ، وأهلك الله فرعون ومن معه أجمعين ؟ ومن أيد موسى
 بالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم ، وجفر له الحجر اثنتي عشرة
 عينا قد علم أناس مشربهم ، وأعطاه من الآيات ما فيه بلاء مبين ؟ ومن
 الذى أعطى عيسى آيات بينات مشاهدات جعله يبرئ الأكسة والأبرص
 ويحيى الموت يأذن الله ؟ ومن الذى أيد محمداً ﷺ بالآيات البينات والنصر
 العظيم ، وشق له القمر ، وسلم عليه الشجر والحجر ، وكم أجاب الله دعوته
 فى إنزال الغيث وإمساكه ، وفى شفاء الأمراض المتنوعة ، وأنبع الماء من
 بين أصابعه فروى الخلق الكثير ، وبارك فى الطعام الذى باشره حتى أشبع

الخلق الكثير ، وعصمه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب ، وحفظه وحفظ ما جاء به ؟ فبعض هذه الآيات توجب لكل منصف أن يعترف بوحداية الله وكلامه وصحة ما جاءت به الرسل وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان . وذلك أن الباطل يعرف تارة بتصويره وتقديره وبيان أدلته الواهية وشبهه الساقطة ، وتارة يعرف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية المشاهدات والمحسوسات والمتواترات . فإذا علم الحق علم أن ما سواه باطل ، فإذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى يصرف الملحدون ، وإلى أى شئ يذهبون ؟ والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المفضى إلى العذاب الأليم

(الوجه السابع والخمسون)

أن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بشبه باطلة تروج على من لا بصيرة له ، ويروجها المأجورون من الزنادقة المنتسبين للإسلام ، يقولون : انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف ، وأنهم متأخرون في أمور الحياة ، والذي أخرهم دينهم . فيروجون هذا من وجوه متنوعة ، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل ، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الاسلامى في نفسه وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم ، وما فيه من الهدايات إلى كل خير والذود عن كل شر وضرر . وتنظر أيضاً إلى حالة القائمين به المنفذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول ، فانك ترى فيه ما يبهج الناظرين ، وتقوم به الحجة على المعاندين . وأما النظر إلى المسلمين التاركين لهدايتهم وإرشادهم وتعاليمهم العالية المنحرفين عنه من وجوه كثيرة ، فهذا ظلم ووضع للشئ في غير موضعه ، فكما لا يقدر ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادعاها من لم يتصف بها ولا يحتاج بحالهم على ذم العلم ، فهذا أبغى وأولى ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عود المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكلامهم عودهم إلى دينهم الصحيح وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾
فقال المسلمين اليوم في تفرقهم وتشتتهم وتركهم جمهور مقومات دينهم حتى
انحلوا وضعفوا صار فتنة للكفار والمنافقين ، وحجاباً حائلاً وشبهة لمن يريد
التلبس فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم

(الوجه الثامن والخمسون)

قال تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله
إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ وهذا أمر مشاهد محسوس ،
أكثر أهل الأرض ضلال منحرفون دعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التي
نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم
إلا يخرصون ﴾ . فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة وتخرصات
ونظريات فاسدة . واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التي لا يزالون
يحدثون عنها بأحاديث متناقضة ولا يزالون يحدثون نظريات وتجربات
في علة العلل فيبطلونها لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك حتى يؤمنوا
بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات والقادر على كل شيء الذي جميع
النوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته ، ليس
لها من الأمر شيء ، وإنما هو حكيم في وضعها مواضعها وتنزيلها منازلها ،
وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل وقولهم بشمول الترقى لكل موجود
عموماً وللإنسان خصوصاً في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته ، حتى
أخذها المغترون عنهم قضية مسلمة ، وهي لا تحتاج إلى نظر كثير ، بل يعلم
بالبداهة والضرورة أن الترقى إنما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات
والمخترعات ، وبهذا اغتروا وغرروا غيرهم

أما الترقى في الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق
لنافذة فانها هبطت هبوطاً لا يمكن التعبير عنه ، وإذا أردت أن تعرف ذلك
فحينئذ نأخذ نموذجاً من الأمثلة وقس أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار

الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة ، مثال ذلك أن أفكار الماديين حصروها في المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها ، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم ، فهذه أفكارهم في أمور ضيقة أوجبت لهم جحد ما سواها وضيق علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل . وأما الأفكار الدينية فإن أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له ، علوا أن الله خلقهم لمعرفة وعبادته وحده لا شريك له وأنهم إذا قاموا بذلك أتم الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحاً دائماً . ومع ذلك فقد سخر لهم ما في السموات والأرض وأدّر عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود بما خلقوا له فيصلح دينهم وديانهم وليحيوا في هذه الدار حياة طيبة ، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدنية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية ؟ وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة ، فالماديون قصرها على علوم المادة فتم لهم منها ماتم ، والمؤمنون عرفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه ظاهره وباطنه ، فعلمهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الآخر . ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في علمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم وديانهم ، فإن دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالاً ذاتياً حتى صاروا كالبهائم بل أضل منها وأخسّ مرجت أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباح كل محرم وانطلقوا في شهوات الفنى لا يثنيهم عنها دين ولا خلق ولا حياة من الله ولا من خلقه كما هو معروف من أحوالهم فذهب دينهم ولم تستقم ديانهم فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة ، خسروا الدين والآخرة ، وأما المؤمنون فإن أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلاً وشرعاً وعرفاً ، وهى الأخلاق التى تجعل صاحبها فى المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم مشاهد

(الوجه التاسع والخمسون)

أن الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكاماً جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلا بها ، لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير وتزودهم عن الشرور ، أما باطنها فالأن المتصفين بها الملتزمين للدين على وجهه قد توجهت قلوبهم إلى القيام بالدين واعتبروه أفرض الفروض وأوجب الواجبات ، راجين بذلك فضل الله وثوابه ، محتسبين خيره ، ومن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يعينه على التزامه في عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء . وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم . وأما القوانين الملحدة فان غايتها إذا قويت أن تسيطر على بعض الظواهر ، وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق فهيات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصّد أن يكون البشر كالبهائم إباحين فوضيين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم ، وتفضي إلى الشرور وتنتهي إلى الحروب ، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل ، وما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية التي أرشد إليها الشارع باقية ببقاء البشر ، صالحة لكل زمان ومكان ، بل لا تصلح الأمور إلا بها ، وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التي لم تبن على الدين فانها موقفة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارهم في الوقت الذي هم فيه ، ثم تتغير وتتبدل وربما غيرها واضعوها لأنها من صنيع البشر وصنعهم كله ناقص ، والشريعة الإسلامية من صنع العزيز الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علماً وعلم مصالح العباد في كل الأوقات والأحوال فشرعها صالحة لهم موافقة لمصالحهم دافعة لمضارهم ، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدين ، والله أعلم

واعلم أنه لا يوجد قانون صحيح أخذت به الأمم إلا وهو في الدين على أكمل ما يكون وأصح ما يكون وأسلم ما يكون من النقص ، فليأت المرتاب بمثال واحد خارج عن هذا الأصل إن كان صادقاً

(الوجه الستون)

قال الله تعالى : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ فذكر جل جلاله أمرين عظيمين يتمتع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلا من معاند ومكابّر فلا عبرة به ولا حيلة في هدايته : أحدهما : آيات الله التي تتلى على العباد وفيها الآيات البينات والحجج القاطعات المتنوعة من كل وجه ، فمن عرف القرآن وتأمله ورأى اتفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته وصدق ما أخبر به من الغيب والشهادة وحسن ما شرعه وحكم به عرف أنه من عند الله وأن البشر بل الانس والجن والخلائق لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وكذلك من عرف الرسول محمد ﷺ وما هو عليه من الكمال المتنوع الكامل في روحه وخلقه ، الكامل في عقله ومعرفته ، والكامل في إنسانيته بجميع مظاهرها ، الذي اجتمع به الكمال الإنساني من كل وجه ، من عرفه على هذا الوجه عرف وتيقن أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً وامتنع مع ذلك أن ينكر رسالته بل تحقق صدقها وبطلان ما ناقضها والله أعلم . وقال تعالى : ﴿ وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ قل انتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴿ الآيات ، فتعجب تعالى ممن يكفر به وهو يشاهد — وكل أحد له عقل يشاهد — أنه الخالق للوجودات عموماً وللآدمي خصوصاً الموجد له بعد العدم المتصرف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء فكيف يستسيغ أحد بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الالحاد والكفر

والإنكار ، أفى الله شك فاطر السموات والأرض وهو الذى يطعم ولا يطعم وهو الغنى بذاته والكون كله فقير إليه بذاته من كل وجه .

(الوجه الحادى والستون)

أن هؤلاء الملاحدة الماديين فسدت عقولهم — مداركها وأعمالها وسلوكها — وذلك أن صحة العقل أن يدرك الحق وأن يعمل به ويسلك الطريق النافع ، وهؤلاء أنكروا وجحدوا الحق ، فإن الله هو الحق وقوله حق ودينه حق ووعدده ووعدده حق ، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التى هى أقوى البراهين وأصدقها ، وشهد بذلك لنفسه وشهد به خيار الخلق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ، وشهد به جميع العقلاء ، وعليه فطرت الخليقة . فمن أنكر هذا فهو إما معاند مكابر قد فسد سلوكه وعمله وقصده التى هى ثمرة العقل ، وإما مشتببه عليه الأمر فهذا أعظم الناس على الإطلاق جهلاً وضلالاً لأنه ضل بأوضح الأشياء واشتببه عليه الليل والنهار والضياء والظلمة ، وكل من فسد إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإن أقواله لاغية باتفاق العقلاء ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وكل من يقبل قول هؤلاء الملحدين فهو أحد رجلين : إما جاهل بحقيقة أمرهم ، وإما ظالم يريد علواً فى الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين . وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ ، وحال القرامطة مع رؤسائهم ، وحال الكفار والمنافقين فى أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون اه .

(الوجه الثانى والستون)

أن قول هؤلاء الملحدين الماديين إذا تصور على حقيقته جزم العاقل بطلانه وقال : كيف اشتبه هذا على أحد ؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه أن شيخ الإسلام : ولا ينبغي للإنسان أن يعجب ، فما من شيء يتخيل من

أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس . ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات ، وأنهم صم^م بكم^م عمى ، فهم لا يفقهون ولا يعقلون ، وأنهم لى قول مختلف يؤفك عنه من أفك^م ، وأنهم فى ربهم يترددون ويعمّهون . انتهى كلامه . فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد ، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم لها ولا قصد ولا شىء من الشعور العلى ولا الشعور الإرادى ، فلو صورت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشدّه مكابرة للعقول لم يهتد المصور إلى تعبير عن شىء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنونى ، وهذا من جزاء من من جاءه الحق فردّه ، ونقلب أقنعتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة .

(الوجه الثالث والستون)

أنه قد تقرر فى الفطر والعقول أن الله له الكمال المطلق والحمد المتنوع . وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تنسب إليه بوجه من الوجوه ، وهذا متقرر مستقر فى قلوب جميع أهل الأديان وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله وأنه ليس كمثل شىء فى جميع أوصافه وأفعاله ، ولم ينكر هذا إلا فرقة وشرذمة من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات ، فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة ، وإن اختلفت طرائقهم وتباينت ديانتهم وتنازعوا فى الأصول أو فى الفروع ، فهذا الأصل لا ينكره منهم منكر ، ولا يجحده إلا المعاندون الذين خرجوا من الشرع والعقل والفطرة ، وإن كان لهم عقول وأقنعة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة حيث وجهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها ، ولكنهم لم تغن عنهم هذه العقول شيئاً فى أنفع الأشياء ، بل كانت حجة عليهم ، فما علموه من علوم الكون حجة عليهم فيما أنكروه مما هو مقصود أصلى ، وعلوم الكون كلها وسيلة إليه ، فانقطعوا فى الوسائل عن المقاصد ، وبالدليل عن المدلول ، وبالكون عن المكوّن ، وبالصنعة عن صانعها ، وبقوا فى غيهم وضلالهم وطفياهم يعمّهون

والله تعالى له المثل الأعلى وهو معطي الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات ، وهو أحق بالكمال من كل موجود ، فالذى علم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوعة ، وأقدره على كثير من مواد الطبيعة وعناصرها وجعل له السمع والأبصار والأفئدة ، هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره ، أفهذه النعم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون ، ويجحده الجاحدون ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾

(الوجه الرابع والستون)

أن كل برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود ، لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر ، ولكنهم يشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره ، فأبطل الله شركهم بأمور كثيرة :

منها : أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلهية والعبادة

ومنها : أن الله تعالى كما هو المنفرد بالنعم وجلب الخيرات ودفع السوء والسيئات ، فهو الذى يجب أن يعبد وحده لا شريك له ، ويحمد ويشكر ويشئ عليه

ومنها : أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه ، فهم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، فيجب أن ينزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتى بالإيجاد والإمداد إلا هو الغنى بذاته عن جميع مخلوقاته

ومنها : أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحاب ،

ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة ، فإذا بطل الشرك بالله وتقرر وجوب الاخلاص لله ثبت وحدانية الله وتفردة بكل كمال ، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين

(الوجه الخامس والستون)

أن البراهين الدالة على رسالة محمد ﷺ ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عموماً ومحمد خصوصاً لا تعد ولا تحصى ، متنوعة من كل وجه ، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به ، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان ، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافى للرسالة وللعقول والفطر . والله أعلم

(الوجه السادس والستون)

البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين ، وقد استدل تعالى على البعث بقوله : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فانه سيعيدهم للجزاء ، وبإحياء الله الأرض بعد موتها ، واستدل بكل قدرته ، واستدل بحكمته ، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سدى : لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، وبغير ذلك من البراهين ، وهذه امثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وكل واحد من هذه الأصول لو بسطت براهينه لبلغت شيئاً كثيراً ، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، وهي تهدم أساس التعطيل والإلحاد ، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وعبادته وحده لا شريك له ، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله

(الوجه السابع والستون)

قال الله تعالى : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾

هذه الآية دلت على كمال علم الرسول محمد ﷺ ، وكمال تعليمه للخلق ، وكمال تنفيذه للهدى والصلاح الذي جاء به ، فهل في إمكان أحد من البشر - الأولين والآخرين - وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة في شخص واحد ، وحصول التعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضلال المبين ، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع ، ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده - أو وجود ما يقاربه - في شخص واحد نفذ ﷺ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال ، إن في ذلك لعبرة للمعتبرين ، وآيات لأولى الألباب ، حيث بعث هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ كتاباً ولا يخط يمينه ولا جالس أحداً من العلماء السابقين فتعلم منهم ، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين ، فزالت به الجهالات والضلالات ، وتقصعت عن القلوب به الظلمات ، وحصل كمال الرشد والهدى ، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى ، شهد بهذا الأولياء والأعداء ، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء ، وكيف يقاربه أحد أويديانه وكل خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها ، وبه كملت العقول والبصائر ، ولا يقدر في هذا إلا كل مباغت مكابر ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾

(الوجه الثامن والستون)

لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيقي والدين الإسلامي

أقوى حصن وأعظم سلاح لمقاومتهم ، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان ، وحملوا حملات متنوعة ، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيراً ، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الاسلام وعقائده وأخلاقه ، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة ، وساعدوها بالقوة ، ودرسوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلوا أهلها ، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسلام وما يدعوا إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام ، وقالوا : إنها رجعية ترجع بالناس إلى الورى عن التقدم المطلوب ، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد في الدين من كل وجه . ولكن - والله الحمد - قد علم أهل البصائر مقاصدهم وعرفوا الخسونة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدو للإسلام في صورة صديق ، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل ، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون يقولون ما يعلمون خلافه ، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه ، وأن البشر لا يمكن أن يحيا حياة طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين ، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر ، وأن آثاره الشر الكبير والإباحية والفوضوية وتقويض دعائم العمران والسير إلى الهلاك والشقاء . فتي رأيت من ينطق بدم الرجعية وذم كل قديم ويأمر بنبيذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين : إما ملحد قصده بذلك التوصل إلى جحد أديان الرسل ونبيذ ما جاءوا به ، وإما مغرور مخدوع مقلد لهم قد غرته هذه المدنية الزائفة وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شيء ، وهؤلاء كاذبون في ذلك ، فان أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم ، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء ، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح ، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد الصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل

الوجوه وأحسنها وأفعها ؟ وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه ، هل تجده إلا مشتملاً على كل خير ، هادياً إلى كل رشد وصلاح ، حائثاً على كل فلاح ؟

(الوجه التاسع والستون)

من محاسن الاسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقاً فقط ، وإنما هو - مع ذلك - موجه وحاكم وصاحب دولة وجهاد ، فالدين الإسلامي بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة كما هو مشروح مفصل من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد ، عليم بكل شيء ، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يبق خيراً إلا دل عليه وحث عليه ، ولا شراً إلا حذر منه ، ولا حقاً إلا أقامه ، ولا عدلاً إلا جعل له مسالك وطرقاً يقوم عليها . فهو دين ودولة وجامع بين مصالح الدين والدنيا وبين التسامح والتيسير وبين العزة والقوة والمقاومة لكل معاند محاد معاد للدين وأهله ، عكس ما نبزه الملحدون أنه دين بلا دولة وآخرة لا دنيا معها ، فانهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين ، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين ، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله وكانوا أجراً وسماصرة للأعداء ، والله أعلم

(الوجه السبعون)

أن من أكبر أسباب الإلحاد الاعراض عن علوم الدين ، وإلا فن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع منه الإلحاد جهلاً وضلالاً ، فإن الدين بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله وصدق رسله وبطلان ما ناقض ذلك ، فلا تجد ملحداً إلا معرضاً من أعظم الجاهلين أو معانداً عارفاً من أكبر المباهتين المكابرين

ومن المصائب الكبيرة أن كثيراً من العصريين ليس عنده بصيرة ولا معرفة بالدين لا قليلة ولا كثيرة ، وإنما عنده إقبال على الصحف المشتعلة على الخير والشر ، وكثير منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرق متنوعة ، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين ، وتملاً أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة ، وليس عندهم من العلم والدين ما يصددهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادى ، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة ، وليس هؤلاء دواء إلا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه ، فنسأل الله السلامة والعافية ، ولا يعرف الدين بتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرف عنه ، فان هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر ، وقد صار هذا المسلك طريقاً لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين ، فقد حملوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين وأمراء مستبدين وأدعياء منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حجاب للمغترين وأعظم حجة للمعاندين العارفين

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلى وهو كتاب الله وسنة رسول الله القولية والفعلية وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد ، فان هذا هو الدين ، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الانصاف ، أما من يريد الاعتساف وقصده معروف فانه يزور على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التويهات ، وينسب إلى الدين ما هو منه برىء ، وإذا كانت فنون العلم - كالطب والحساب والهندسة وما أشبهها - لا يقدر فيها من انتسب إليها وهو جاهل بها ، فكيف بهذا الدين الذى تفرعت عنه جميع العلوم النافعة والمعارف الراقية والأخلاق العالية وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسى ، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين ، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد والجماعات والحكام والمحكوم عليهم والظاهر والباطن والدنيا والآخرة . فتباً لمن قدح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد الناس عنه ، سبحانه هذا بهتان عظيم

(الوجه الحادى والسبعون)

أن مدار هؤلاء الملحدین على تحکیم عقولهم وعرض العلوم والحقائق عليها ، فما وافقها قبلوه وما ناقضها نفوه وأنكروه ، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم ، وعقولهم قد عرف فسادها وتناقضها وتهافتها ، فهذا الأصل الذى بنوا عليه كل شئ أصل منهار متهافت فى غاية الفساد والاضطراب ، وقد فتحوا به للناس المغترين بهم باب الفوضى فى الآراء والنظريات حتى صار كل طائفة بل كل شخص منهم يدعى أن الصواب معه والخطأ مع غيره ، ولهذا تجرأ كل جاهل على القدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب السماوية ، حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية المحضة ، واستجاب لدعوتهم رعاى الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق ، وخيف أن يقع - ولا بد من وقوعه - ما أخبر به النبى ﷺ حيث ثبت عنه أنه قال : لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله الله . ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، وصرنا فى وقت القابض فيه على دينه كالقابض على الحجر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والميل بالسكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها ، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والاقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة ، ويحرفون لذلك نصوص الكتاب والسنة ، فانحرفوا بهذا انحرافاً عظيماً وضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سبيل الله ، ولو أنهم دعوا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين وما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل والتوسل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين والقيام بعبودية الله التى خلق الله لها الخلق وأن يجعلوا ما متعوا به من النعم معونة لهم على ما خلقوا له ، لكان خيراً لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل ، ولنالوا السعادتین ، ولسلبوا من الفساد وانهار العقائد والأخلاق ، ولكنهم متعوا ونعموا وبطروا حتى نسوا الذكر

وكانوا قوماً بوراً ، إنهم كانوا قبل مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون ﴿ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ﴾ الآيات ، ولهذا نسأل الله العافية ، تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهمون بالجزاء الدنيوى والأخروى ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم فى الحقيقة أعلى الناس علوماً وأخلاقاً وأعمالاً ومقامات ، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما تمتع به هؤلاء الملحدون من أموال وأولاد ، ويتلون عند ذلك قوله تعالى ﴿ أيجسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب أليم ، لا يغيرك قلب الذين كفروا فى البلاد تمتع قليل ثم ماؤاهم جهنم وبئس المهاد ﴾

(الوجه الثانى والسبعون)

إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم ، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود فى قدحهم فى القديم أو العتيق أو ما أشبه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها ، فأعرض نموذجاً من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه تعرف بها أن المنكرين لها فى فساد من عقولهم ، وانعكاس من آرائهم ، وسفاهة من علومهم وخسة من أخلاقهم ، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعاً وعقلاً وفطرة ، ليس هذا مجرد دعوى ، وإنما هو بما يتفق عليه العقلاء ، فالدين الإسلامى الذى هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر ، والاعتراف بوحدانية الله وتفرد به بكل كمال ، وتفرد به بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة ، والقيام بعبودية الله ظاهراً وباطناً ، والتوجه إليه وحده ، وخوفه ورجائه وحده ، والإجابة إليه فى جميع النوائب والملمات ، والشكوى إليه فى كل المهمات ، والقيام بحمده وشكره ، والهج بذكره

ودعائه ، والتعلق به وحده في كل شيء ، وترك التعلق بالخلق ، فهل هذا خير أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه وكفر نعمه والطغيان والاستكبار عن عبادته وتعلق القلوب بالخلق رغبة ورهبة ورجاء كما هو حال الملحدين ؟

والدين الاسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال ، وإلى البر والنصح للخلق كلهم . والقيام بحق الوالدين والأقارب ومن للانسان بهم تعلق وصلة ، ومن لهم حق عليه ، ويأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام والقيام بشرائع الدين ، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك

والدين الإسلامى يأمر بالعدل في المعاملات كلها ، والقيام بالحقوق كلها ، وينهى عن الظلم في الدماء الأموال والأعراض والوفاء بالعهود والعقود ، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها ليوفيها حقها ويتعد عن شرورها ومفاسدها خوفاً من الله ورجاء لثوابه

وأهل الإلحاد يأمر بصد ذلك ، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله ، وإنما هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل ، حيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم واغتنام الخيانات وتضييع الأمانات اندفعوا إليها ، ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة ، إنما هي الإباحية المحضة ، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم ، فهو لاء كالأنعام بل هم أضل ، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعا يجدى

وبالجمله الدين الإسلامى يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وهدى مستقيم وطريق قويم وصلاح متنوع ، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة ، وسقط في مهاوى الهلاك والأخلاق الرذيلة ، فلقد تعس واتكس من عبر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التى لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية ، والرجوع إلى القديم ، والعبارات الوسخة التى هى أكبر

معبر عن سخافة عقول معبريها وسقوطهم في كل رذيلة وخلوهم من كل فضيلة
ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به ﴿إن هذا إلا أساطير
الاولين﴾ ، ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ ، ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك
إلا هزوا ، أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ ، ﴿ولقد استهزىء برسل من
قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾

(الوجه الثالث والسبعون)

ذكرنا فيما سبق أن أعظم ما يبطل الإلحاد معرفة دين الاسلام والعمل
به ، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمنحل معه كل باطل من كل وجه ،
خصوصاً أقبح الباطل وأشنع وأشد منافاة للعقل والدين وهو الإلحاد ،
وقد عرف أهله هذا منه وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحية الدين عن
المتعلمين ، وأبعدوه عن المدارس ، فان لم يتمكنوا جعلوا التعليم في الدين
ضعيفاً أو اسماً بلا مسمى ، فهم عند التمكن ينحون الدين جملة ويدخلون
في تعليم المدارس أصول الإلحاد فيخرج المتعلمون ملحدين صرفاً ، فان
لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا في إضعاف علوم الدين ،
واقتصروا على العلوم العصرية ليذهب من قلوب الناشئة حب الدين ويسهل
توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده ، فان البصيرة في الدين إذا ضعفت ،
والقلوب إلى غيره توجهت ، انهارت الأديان والأخلاق كما هو مشاهد
معلوم في كل المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا ، فيتعين على المسلمين
وعلى ولاية أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء في علوم الدين وأخلاقه ، فان
هذا من أفرض الفروض ، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر ، فان
الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكنوا من علوم الدين وصار
عندهم بصيرة صحيحة فيه فانهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم ، وإلا فليعلموا
أنهم رعاة وكل راع مسئول عن رعيته ، فهم مسئولون عن الناشئة المتعلمين
في المدارس فاذا لم يتفقهوا ثقافة دينية صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمتهم ،

فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء
الضار بأعداء الاسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم فانه ما شاع الالحاد
في البلاد الاسلامية إلا بهذه الطريقة فكيف إذا نصرتها قوة الولاة وصاروا
هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات وطرّدوا
عنها الدين أو أضعفوه ، فترجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم
لهذا الأمر العظيم الذى خطره كبير وشره مستطيل ، وإلا فلا يلومن
إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا والله المستعان

(الوجه الرابع والسبعون)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : الرب تعالى أعرف من أن ينكر وأعظم
من أن يحدد ، ولهذا قالت الرسل لأممهم : أفى الله شك ؟ وهو الغنى بذاته
عن جميع الموجودات ، فان افتقار كل ما سوى الله هو حكم وصفة ثبتت
لما سواه ، فكل ما سواه - سواء سمي محدثاً أو ممكناً أو مخلوقاً أو غير ذلك -
هو مفتقر محتاج إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجه من الوجوه ولا فى حال
من الأحوال ، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته ففقر الممكنات من لوازم
ذاتها ، وهى لاحقيقة لها إلا إذا كانت موجودة ، فان المعدوم ليس بشيء ،
فكل ما هو موجود سوى الله فانه مفتقر إليه دائماً حال حدوثه وحال بقاءه
وهذا يوجب افتقاره إليه دائماً . انتهى

فعلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغنى القائم بنفسه
القائم بكل موجود أو إنكار وحدانيته أو حق من حقوقه من أسخف
الجنائيات وأطمها ، وأن هذا المخلوق الفقير من وجه قد تعدى حده وطوره
قال الشيخ : وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتبعهم وهم أئمة لا يحصى عددهم
إلا الله قد أخبروا بوحدانية الله وتفرد بصفات الكمال وهم مستيقنون
ذلك لا يرتابون فيه وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أى تواتر قدر ، قد
اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك ، علم أنه هو الحق الذى لا ريب
فيه وما سواه باطل . انتهى

(الوجه الخامس والسبعون)

قال شيخ الإسلام في رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين في قولهم : إن العقل يجب تقديمه على السمع ، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به ، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ، والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة . انتهى

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطراباً لا محيد لهم عنه أن محمد رسول الله حقاً ، فلو قدمنا شيئاً مما قيل إنه معقول على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقول فاسد لثلا يلزم تناقض قضايا العقل ، فأعظم القضايا التي حكم بها العقل قضية صدق الرسول ﷺ ، فتي أنكر هؤلاء الملاحظة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل ، كما أنهم معاندون للشرع ، وإذا تقرر أن العقل دل دلالة عامة مطلقة على صدق الرسول في كل خبر وحكم كان إيراد المورد على بعض جزئيات الشريعة معلوم الفساد ، وكان علمنا العام بصدق الرسول في كل شيء يقضى على جميع الجزئيات ، ونهاية الأمر أن يكون الذي وقع فيه الاشكال من المشتبهات ، والمشتبهات يتعين ردها إلى المحكمات ، وهو الأصل العظيم المحكم الذي تواردت عليه جميع البراهين اليقينية ، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به . والله أعلم

قال الشيخ : وإذا كان الأمر كذلك فاذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله ، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينازعه في خبره ، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه ، وأن لا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه ، وإن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وبين أهل العلم بالطب ، فاذا كان عقله يوجب أن ينقاد

لطبيب يهودى فيما أخبره به من مقدرات الاغذية والاشربة والاضمة والمسيلات واستعمالها على وجه مخصوص - مع ما فى ذلك من الكلفة والالم - لظنه أن هذا أعلم بهذا منى وأنى إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لى ، مع علمه بأن الطبيب يخطئ كثيراً ، وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب ، بل يكون استعماله لما يصفه سبباً فى هلاكه ، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه ، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والرسل صادقون مصدقون لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط ، وإن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصىه إلا ذو الجلال ، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطئ قط بما لم يصب فى معارضة له قط ؟ انتهى

وقال أيضاً : والذين ادعوا فى بعض المسائل أن لهم معقولا صريحاً يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوى العقولات فقالوا : إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول ، فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة ، وإما بظهور تناقضهم ظهوراً لا ارتياب فيه ، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه العقولات لهم ، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقلیات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه ، والناس إذا تنازعوا فى العقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى ، بل يرجع فى ذلك إلى الفطر السليمة التى لم تتغير باعتقاد بغير فطرتها ولا هوى ، وإذا كان قول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا فى الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون فى معرفة هذه العقلیات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب ، بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب ، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم فى الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقلیات ؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب ، فالأول : كسراب بقية

الآية والثاني كظلمات في بحر لحي الآيه ، وأصحاب القرآن والايان في نور على نور - وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق ، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله من الخبر والطلب ، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم ، فوجب أن كل ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي ، فتنى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزماً قاطعاً أنه حق ، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به ، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعى ولا عقلي ولا سمعي ، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فأنما هو حجج داحضة ، وشبهه من جنس شبه السوفسطائية ، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح ، كان هذا العقل شاهداً بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل ، فيكون هذا العقل والسمع جميعاً شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع . انتهى

وقال رحمه الله حين تكلم عن الفلاسفة : ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين ، فيكفى في ذلك إخبار الرسل عن خلق السموات والأرض وحدث هذا العالم ، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به ، وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها ، وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفوس ويشقى منها ، وتدلم على أن من اتبع الرسل كان سعيداً في الآخرة ومن كذبهم كان شقياً في الآخرة ، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقياً ، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيداً في الآخرة وإن لم يعلم شيئاً من ذلك ، ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة ، وكان الشرك مستحوذاً عليهم ،

وكان منتهى عقلهم أموراً عقلية كلية كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علّة ومعلول وجوهر وعرض ، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض ، وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى ، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان ، ليس فيها علم بوجود معين لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك ، وليس فيها محبة لله ولا عبادة له فليس فيها علم نافع ولا عمل صالح ولا ينجى النفوس من عذاب الله فضلاً عن أن يوجب لها السعادة

(الوجه السادس والسبعون)

قال شيخ الاسلام : من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الايمان بالرسول إيماناً مطلقاً جازماً عاماً بتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر ، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل ، وإن من قال : يجب تصديق ما أدركته بعقلي ورد ما جاء به الرسول لرأى وعقلي ، وتقديم عقلى على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به ، فهو متناقض فاسد العقل ملحد في الشرع . وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي فكفره ظاهر ، وهو ممن قيل به : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لنؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله : ﴿ كذلك يضلل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ ، والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء ، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذي قد يكون ناسخاً له أو مفسراً له كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه . انتهى

(الوجه السابع والسبعون)

جميع الأمم - أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين - متفقون على إثبات ربوبية الله ، وأنه الاول الذى ليس قبله شيء ، الخالق لكل شيء ، الرازق المدبر لكل شيء ، وأتمتهم فى هذا الأنبياء والمرسلون وأهل الهدى من العلماء الربانيين أهل العلوم الغزيرة والعقول الوافية والمعارف الصافية الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم ، متفقون على علم وبصيرة ويقين ، قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار فى قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها

وخالفهم من هذا شذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ وسلك سبيلهم زنادقة الماديين ، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلم عليه ولا سمع ولا عقل ولا فطرة ، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات ، ومع ذلك فأقوالهم فيما يثبتون من النظريات والقول فى العلل غير متفقة ، كل فريق بنظرياتهم الخاطئة فرحون ، ولاخوانهم من الزنادقة معارضون ، فدعهم فى بطغيانهم يعمهون ، وفى اضطرابهم وتخالفهم يترددون ، وفى غيهم وجهلهم وسفاهة عقولهم وما انتهت إليه معارفهم فى هذا الأمر من المضحكات يمرحون ، واحمد الله الذى عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامة الكبرى ، وقل معترفاً بنعمة الله متبجحاً بفضل الله : آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية ، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

(الوجه الثامن والسبعون)

إن الله ضرب الأمثال فى كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعاد وإبطال قول من ينفيها أو يقدر فى شيء منها ، والأمثال أقنعة عقلية تنبه

العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل ، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذابين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ﴾ وقوله : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً رجلاً ، هل يستويان مثلاً ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبجلة لأقوال المبطلين والمعطلين ، وكذلك ما ضربه الرسول محمد ﷺ من الأمثلة المقررة لأصول الدين

قال شيخ الاسلام رحمه الله : والكتاب والسنة يدل بالأخبار تارة ويدل بالبينة تارة والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية قد جاء به الكتاب والسنة مع زيادات وتكميلات لم يهتد إليها إلا من هداه الله بخطابه . فكل ما قد جاء به الرسول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين . انتهى

وقال أيضاً : معلوم بالسمع اتصاف الله بالأفعال الاختيارية القائمة به كالاستواء إلى السماء وعلى العرش والقبض والطي والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك بل والخلق والإحياء والإماتة فإن الله وصف نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدية ، والفعل المتعدى مستلزم للفعل اللازم ، فإن الفعل لا بد له من فاعل سواء كان متعدياً إلى مفعول أو لم يكن . والفاعل لا بد له من فعل سواء كان فعله مقتصر عليه أو متعدياً إلى غيره ، والفعل المتعدى إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله إذ كان لا بد من الفاعل ، وهذا معلوم سمعاً وعقلاً ، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصوفاً بأنه يتكلم بما شاء فعال لما يشاء . انتهى

(الوجه التاسع والسبعون)

قال الله تعالى : ﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ وقال : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ فآخبر أنه يقول الحق وهو الصدق فيما أخبر به ، والعدل فيما حكم به ، وأنه يهدي السبيل فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق ، ويرى العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، وما أخبر به من الحق ، ودل عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة بما يقرر به جميع الأصول التي هدى بها عباده على السنة رسله ، وما أجاب به كل مبطل أورد الشبه على الحق الجواب القاطع لشبهته المبطل لحجته ، فهو ظاهر واضح للعباد ، وهو من الحقائق التي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علم صحيح ينافيها . بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل أما على وجه الإجمال فالله يقول الحق ﴿ وتمت كلبه ربك صدقاً وعدلاً ﴾ فكل ما ناقض ذلك فهو باطل فما ذا بعد الحق إلا الضلال

وأما على وجه التفصيل فما يأتي المبطلون بمثل يقدهون فيه بالحق إلا أبطله الله وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يبطله . وقد تتبع العلماء الأعلام جميع ما أورده المبطلون مسألة مسألة فوضحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعية السمعية ومن جهة الدلالة العقلية وتحذوا أهل الباطل تحذياً صحيحاً أنهم لا يأتون بمثل يقدهون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية والله أعلم

(الوجه الثمانون)

قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبجان الله عما يصفون ﴾ وهذا برهان عقلي قاطع صورته الله

لعقول العقلاء ، وأنه يدل على ربوبية الله ووحدانيته وتوحيده وتفرده بالتدبير ، فانه لو فرض معه إله آخر فأما أن يعارضه ويقاومه وحينئذ فلا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب أو يمتنع مراد كل منهما وهو محال لأنه يدل على عجز كل منهما ، أو يوجد مراد الجميع وهذا محال لأنه يقتضى عجز كل واحد منهما مع الانفراد لا مع الاجتماع . فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار ، فاذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع الله يقتضى فى العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هى التى أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها ، وهى مع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة ، هل فوق هذا المحال محال ؟ وهل يتصور أبلغ من هذا الضلال ؟

(الوجه الحادى والثمانون)

قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون ﴾ فهاتان الآيتان العظيمتان اللتان تجمعان آيات كثيرة وبراهين قاطعة توصل إلى كمال العلم واليقين وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون وتبطل كل شرك وإلحاد وجحود آياته المشهودة وآياته المسموعة ، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير الحكيمة وتفكر فى آيات الله القرآنية التى فصلها الله أحسن تفصيل وأحكم فيها الأحكام وأصل الأصول المحكمة وجعلها هداية عامة ورحمة شاملة ودعوة إلى كل خير وصلاح وسبباً إلى كل رشد وهدى وفلاح ، علم علماً لا يمتري فيه أن الذى دبر المخلوقات وفصل الآيات هو الرب العظيم الذى تتضام عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته ، وأنه المتوحد بالربوبية والإلهية وسائر صفات الكمال ، وأن رسله صادقون مصدقون ، وأن أعداء الرسل فى مكابرة ومباهات وعناد ، وفى غي وجهل وضلال

ففى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

أفى الله شك فاطر السموات والأرض على أحسن خلق وأبدعه وأجمعه
لجميع المحاسن وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته ، فتبارك
الله رب العالمين ، وقد ألزم الله المكذبين وقررهم باعترافهم واعتراف
الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير فقال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من
السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار - إلى قوله - فما لكم كيف
نحكمون ﴾ كما أخبر أن فى إنزال القرآن يتلى عليهم كفاية تامة عن جميع
البراهين كفاية لتقدير الحق وإبطال كل باطل قال تعالى : ﴿ أو لم يكفهم
إنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾

(الوجه الثانى والثمانون)

نذكر كلاماً جامعاً مفصلاً يعترف به كل من له معقول صحيح فى القول
فى المعقولات قاله شيخ الاسلام به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدین
خرجوا عن العقليات الصحيحة وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوى باطلة

قال رحمه الله : المعقول هو المعقول الصريح الذى يعرفه الناس بفطرتهم
التي فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض كما يعلمون تماثل المتماثلين
واختلاف المختلفين ، أعنى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين ،
فان لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا ، وهذه المعقولات فى العليات هى التي
ذم الله من خالفها بقوله : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب
السعير ﴾ وأما ما يسميه بعض الناس «معقولات» ، ويخالفه فيه كثير من
العقلاء فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها رد الحس والسمع وينبنى
عليه علوم بنى آدم ، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات
بديهية أولية ، بخلاف العقليات الصريحة فان هذا معلوم بفطرة الله ، فاذا جاء
فى الحس أو فى الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك علم أنه غلط ، فكل

من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط وإن كان صادقاً فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر ، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس ، فإن الحس ليس فيه علم بنى أو إثبات ، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون ، لا يقولون على الله إلا الحق . ولا ينقلون عنه إلا الصدق ، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذباً ، بل لابد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول غير صحيح ، فما علم يقيناً أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه ، وما علم يقيناً أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه . انتهى

وهذا تفصيل عظيم يعترف به جميع أذكاء العقلاء المنصفين ، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كل ملحد ومارق يزعم خلاف ذلك في جميع المسائل ، وقد تكفل بهذا التحدى على وجه التفصيل هذا الشيخ الامام في كتابه العقل والنقل ، وأبطل كل مسألة أصولية أو فروعية زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقل ، وبين أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح في جميع المسائل والدلائل ، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن ، فإنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، ومن أصدق من الله قيلاً ، وأحسن منه حديثاً ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، صنع الله الذى أتقن كل شئ .

(الوجه الثالث والثمانون)

قد تقرر بما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط أو جحود مع العناد ، لأن رؤسائهم وأساطينهم أهل الذكاء والفظنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم ، بل إما إلى حيرة وارتباب ، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب ، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب ، كما عرف ذلك من

مقالاتهم . فاذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر
معشارهم في الذكاء والفظنة والبحث . فهم كما قال عنهم : ﴿ والذين كفروا
أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ إلى آخر الآيات . والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على
نور من ربهم ويقين من إيمانهم حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم
على الأصول الصحيحة الثابتة ، وهي نصوص الكتب المنزلة من السماء
ونصوص الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر
المستقيمة ، ففازوا بخير الدنيا والآخرة ، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة
فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علماً و يقيناً وإيماناً وطمأنينة به وبذكره
وسلوكا للصراط المستقيم المشتغل على العلم بالحق والعمل به الموصل إلى كل
خير وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو
الوهاب ، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين ،
وأن يصلي على رسوله محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكاها وآتمها ، ويسلم عليه
تسليما كثيرا هو وجميع الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين .
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتحصل البركات

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله : عبد الرحمن بن ناصر السعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢
وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ٦ رمضان سنة ١٣٧٢ ،
بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان غفر الله له ولوالديه

تعريف

بكتاب ﴿ الأدلة القواطع والبراهين ﴾

هذا الكتاب عظيم ، ليس له مثل فيما نعلم في موضوعه وحسنه ووضوحه ومناسبته للوقت الحاضر ، والحاجة والضرورة قد اشتدت إليه ، لأن تيار الإلحاد وطغيان المادة جَرَفَ جمهور الخلق ، فمنهم الدعاة والرؤساء المخادعون المفرّرون ، ومنهم أهل السياسة المستعمرون . ومنهم ضعفاء البصائر المغترون . ومنهم السماسرة المأجورون المنافقون ، فعمت المصيبة ، واشتد الخطب ، وعاد الدين الصحيح غريباً كما بدأ غريباً ، وصار القابض على دينه الحق كالقابض على الحجر

وهذا الكتاب قد نازل جميع طوائف الملحدّين ، وتحداهم ، وأبطل أصولهم ، وفنّد مأخذهم ، وهدم قواعدهم ، وزلزل بنيانهم ، وبين مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة ، كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة ، وتكلم معهم بكل طريق : فتارة يصور مقالاتهم تصويراً واضحاً واقعياً يعرف به كل عاقل بطلان أقوالهم بمجرد تصويرها على وجهها ، وتارة يبطل الأصول التي بنوا عليها إلحادهم بالبراهين اليقينية ، ويبين أنها أصول في غاية الضعف والانهار ، وتارة يذكر ما يقابلها من الحق وأصوله ، وبراهين الصدق واليقين التي يعرف بها أن ما سواها باطل وضلال ، وتارة يذكر تمويهات الملحدّين وما زخرفوه من الألفاظ الخادعة لنصر باطلهم وترويجه بين ضعفاء البصائر أتباع كل ناعق ، وتارة يشير إلى المسالك التي سلكها من خادع أو انخدع من المنافقين والملبسين ، فهو سلاح للمؤمنين ، وغذاء للوقتّين ودواء لمن قصده الحق من الحائرّين ، ونور يهتدى به في متاهات الخيرة والضلال ، وعلم يأوي إليه كل طالب حق في جميع الأحوال ، ومع ذلك فقد سلك مع طوائفهم مسلك الإنصاف ، وعرض الحقائق على العقول عرضاً واضحاً يقبله كل عاقل

سليم الفطرة والنظر ، فهو كتاب يصلح لجميع طبقات الناس على اختلاف
مذاهبهم ، فكل من يستمد ، وكل قارىء به ينتفع ، ونخب الكتاب والوقوف
عليه يغنى عن وصفه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العليم الحكيم ، وصلى الله وسلم على نبيه الكريم ، الهادى إلى
الحق وإلى طريق مستقيم ، وعلى آله وصحبه
أما بعد : فهذا كتاب جليل ، يتضمن أدلة قاطعة وبراهين ساطعة هي
نجوم زاهرة فى سماء المشكلات ، وهى شهب تنقض فتدحض شبه الملحدين ،
بل هذه الأدلة وهذه البراهين خير معاول لهدم أصولهم وتقويض صروح
قواعدهم التى أسست على شفا جرف هار ، وانبتت على دعائم ما أوهنها
من دعائم

فحقيق بالقارىء أن يتأمل الكتاب حق التأمل ، ليرى النور كيف
يكتسح الظلمات ، وليرى العلم كيف يصرع الجهل ، وليرى الحق كيف
يحمل على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق
جزى الله الشيخ عبد الرحمن عن الدين وحامله ، وعن العلم وذويه ،
خير الجزاء بمنه تعالى وكرمه

عبد الله السلمان

فهرس

صفحة

- ٢ خطبة المؤلف
- ٤ في أن الأصل الأول للملاحدة نحو العلوم والاعتقادات من القلوب
قبل الشروع في المعارف ، وحصرهم المعلومات بالمحسوسات
- ٤ الوجه الأول من أوجه نقض هذا الأصل أنه أخط من الخطايات
- ٤ الثاني أن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به عما عند هؤلاء
- ٥ الثالث أن أرسطو وذويه أقل الناس نصيباً في معرفة العلم الإلهي
- ٥ الرابع في فساد قوله ، فليستحدث لنفسه فطرة أخرى ،
- ٦ الخامس أن الرسول إذا أخبر بشيء من صفات الله تعالى
وجب التصديق
- ٦ الوجه السادس الوصية باستحداث فطرة أخرى تخالف ما بعث الله به رسله
- ٧ السابع هذه الوصية تتضمن نحو العلوم والمعارف والإيمان
- ٨ الثامن هذا الكلام باطل شرعاً وعقلاً
- ٨ التاسع هذا الأصل يعود إلى تسلسل نحو ما يقع في القلوب من
علم صحيح وفاسد
- ٩ الوجه العاشر أيهما أولى : القلب الذي يحيت منه الاعتقادات الصحيحة ،
أم القلب العام بالعلوم الصحيحة والإيمان الصادق
- ١٠ الوجه الحادي عشر أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله
- ١٠ الثاني عشر أن نحو العلوم الصحيحة من القلوب غير ممكن
- ١١ الثالث عشر أن المقصود من هذا الأصل الكفر بما جاءت
به الرسل
- ١٢ الوجه الرابع عشر أن الله لا يجب الجهل ولا الشك ولا الحيرة

١٢ الوجه الخامس عشر لو فرض خلو القلب من الحق والباطل فان الحق
يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار

١٢ الوجه السادس عشر الأمور اليقينية يستحيل أن تقدح فيها الشبهات

١٣ د السابع عشر ما جاء به الرسل هو مناط السعادة ، فالسعى لازالته
محاربة لله ورسله

١٣ الوجه الثامن عشر الرسل جاءوا بمحق ما ينافي بالإيمان

١٤ د التاسع عشر الملحدون يريدون من الناس أن يجحدوا قضاء
الله وقدره

١٤ الوجه العشرون حصروا علومهم في الحواس فأنكروا لذلك علوم الغيب

١٦ د الحادى والعشرون أنهم كلما اتفقوا على نظرية عادوا فنقضوا
ما اتفقوا عليه

١٧ الوجه الثانى والعشرون لما وضعوا أصلهم الباطل جرهم إلى إبطال
الوحي والمعاد

١٧ الوجه الثالث والعشرون العلوم الحسية قطرة من بحر علوم الرسل

١٨ د الرابع والعشرون زعمهم أن الرجوع إلى الماضى رجعية

٢٠ د الخامس والعشرون لا عاصم من الفوضوية والشهوات إلا بما
جاءت به الرسل

٢١ الوجه السادس والعشرون ما أخبر به الرسل من أمور الغيب محسوس
ولكن فى الدار الآخرة

٢٢ الوجه السابع والعشرون اليهود والنصارى أعلم من هؤلاء بالأمور
الإلهية

٢٤ الوجه الثامن والعشرون طرق العلوم اليقينية كثيرة وأكثرها لا تدخل
تحت علومهم

٢٥ الوجه التاسع والعشرون آيات الرسل حسية شاهدها الأمم وآمنت بها ،
والملاحدة بانكارهم لها ينكرون المحسوسات التي شاهدها الناس

٢٦ الوجه الثلاثون الطبيعة لا شعور لها ، فما يكون فيها من ابداع واتقان
هو من صنع الله

٢٧ الوجه الحادى والثلاثون علوم الملاحدة عرضة للتغيير ففى لا تصلح
لمعارضة الحقائق الثابتة والخالدة التي جاءت بها الرسل

٢٧ الوجه الثانى والثلاثون ما ثبت من صدق الرسل وأحوالهم وتواتر آياتهم
والتحدى بالقرآن القائم إلى يوم القيامة يجعل إنكار ذلك مكابرة
فى المحسوس

٢٨ الوجه الثالث والثلاثون الشريعة المحمدية متضمنة لأعلى المطالب وقد
شهدت العقول بحسنها والحاجة إليها ، ولا يمكن أن يعارضها
عقل سليم ولا علم صادق

٢٩ الوجه الرابع والثلاثون أصل بلاء الملحدین قياسهم الرب العظيم
بالمخلوق الناقص

٣٠ الوجه الخامس والثلاثون أن الملاحدة حصروا مداركهم فى الحياة الدنيا
نختم الله على قلوبهم فيما وراء ذلك من علوم جهلوها

٣٢ الوجه السادس والثلاثون ارتباط أدلة الدين بمدلولاتها أقوى من
ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها

٣٣ الوجه السابع والثلاثون وجود الله أظهر الموجودات ، وهو واجب
الوجود ، والمكابرة فى إنكار ذلك من فساد العقول وضعف
الأخلاق

٣٥ الوجه الثامن والثلاثون انكار الله والتشكيك فى رسالاته من أعظم
ما يساء به إلى المجتمع ومن أول ما يعمل لهدم الفضائل وأسباب
السعادة

٣٩ الوجه التاسع والثلاثون دعوى أن هذا الكون البديع من آثار المصادفة لا تصدر إلا عن عقول المجانين

٤٠ الوجه الأربعون من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة مقطوعة الصلة بالله

٤١ الوجه الحادى والأربعون أن الله أيد محمدا ﷺ بشهادة الله له وبالقرآن

٤٢ د الثاني والأربعون أن الإلحاد يحرم أهله من سعادة الشكر لله على نعمه ، ومن فضيلة الصبر على المكاره

٤٣ الوجه الثالث والأربعون تقدم العلوم المادية نشأ عنه غرور أصحابها ، واستعملت فى التدمير والشر لبعدها عن روح الدين

٤٤ الوجه الرابع والأربعون أن الماديين عجزوا عن حل مشاكل الحياة .

مع أن الدين ولا سيما الاسلام تكفل بحلها

٤٦ الوجه الخامس والأربعون بطلان ما وصفوا به إلحادهم بأنه تجديد ورقى وتقدم

٤٧ الوجه السادس والأربعون استحالة تهذيب النفوس واكتساب الفضائل بعلوم المادة المحضه ، وأن ذلك لا يكون إلا بالدين الاسلامى

٤٨ الوجه السابع والأربعون القرآن العظيم أكبر البراهين على صدق ما جاء به خاتم المرسلين

٤٩ الوجه الثامن والأربعون ما عرف من علو الأخلاق المحمدية وما أيد به الله به من الآيات يدل على أنه رسول الله حقاً وأن ما خالفه باطل

٥٠ الوجه التاسع والأربعون الاسلام دين الفطرة والحكمة والعقل والحجة والحرية والاستقلال

٥٠ الوجه الخمسون ما جاء به محمد ﷺ أكبر الأدلة على أن دينه هو الحق

٥١ د الحادى والخمسون الموازنة بين سيرة المؤمنين وسيرة الملحدین كافية للحكم على الفريقين

- ٥٢ الوجه الثاني والخمسون ما وقع من ملاحدة الماديين مصداق لحديث نبوى ثبت فى الصحيحين
- ٥٣ الوجه الثالث والخمسون مهما بلغ علم البشر فانه كقطرة من بحر علم الله الذى يجهلونه
- ٥٤ الوجه الرابع والخمسون ما الذى يحمل الملاحدة على مناهجهم الباطلة؟
- ٥٥ د الخامس والخمسون من أكبر الحماقات نسبة دقائق صنع الله إلى المصادقة العمياء
- ٥٦ الوجه السادس والخمسون ما أكرم الله به رسله وأيدهم به ، وما خذل به أعداءهم
- ٥٧ الوجه السابع والخمسون القول فى احتجاجهم على الاسلام بانحراف المسلمين عن هداية دينهم
- ٥٨ الوجه الثامن والخمسون انحلال الأخلاق وانهيار المجتمع الانساني بسبب الإلحاد
- ٥٩ الوجه التاسع والخمسون أن سعادة المجتمع لا تكون إلا بسنن الاسلام وأنظمتها
- ٦٠ الوجه الستون قول الله عز وجل ﴿ وكيف تكفرون وأتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾
- ٦١ الوجه الحادى والستون صحة العقل أن يدرك الحق ويعمل به ، واقه هو الحق ودينه الحق
- ٦٢ الوجه الثانى والستون ما من نوع من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس
- ٦٣ الوجه الثالث والستون عقيدة الكمال لله مقرررة فى الفطر والعقول ولا يجهلها إلا الزنادقة والمارقون

- ٦٥ الوجه الرابع والستون كل دليل يبطل به الشرك هو برهان على بطلان الإلحاد .
- ٦٦ الخامس والستون البراهين على رسالة الرسل مبطلّة لأقوال الملحدين .
- ٦٦ السادس والستون البراهين على البعث هادمة لأصول الملحدين
- ٦٧ السابع والستون كمال علم الرسول محمد ﷺ وكمال تعليمه للخلق
- ٦٧ الثامن والستون حرص المستعمرين على إفساد التعليم لابناء المسلمين
- ٦٩ التاسع والستون من جمال الاسلام شموله لسعادة الدنيا والآخرة
- ٦٩ السبعون من أكبر أسباب الالحاد الاعراض عن علوم الدين
- ٧١ الحادى والسبعون الملحدين يعارضون عقول العقلاء وعلوم الأنبياء .
- ٧٢ الثانى والسبعون إنكار الملاحدة لما يدعوا إليه الدين من حق وخير دليل على فساد عقولهم .
- ٧٤ الثالث والسبعون سعى الملحدين لتثحية الدين عن المتعلمين وغرضهم من ذلك .
- ٧٥ الرابع والسبعون : الله أعظم من أن يحمد ، والانسان أضعف من أن يحمد الله .
- ٧٦ الخامس والسبعون العقل مصدق للشرع ، فالشرع مقدم بشهادة العقل .
- ٧٩ السادس والسبعون لقد ثبت صدق الرسول ﷺ فوجبت طاعته فى كل ما جاء به .
- ٨٠ السابع والسبعون جميع الأديان متفقة على إثبات ربوبية الله .
- ٨٠ الثامن والسبعون ضرب الله الأمثال لتقرير التوحيد والرسالة والمعاد .

- ٨٢ الوجه التاسع والسبعون آية ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ .
- ٨٢ د الثمانون آية ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا﴾
- ٨٣ د الحادى والثمانون : وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد
- ٨٤ د الثانى والثمانون خروج الملحدىن عن العقليات الصحيحة وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاو باطله .
- ٨٥ د الثالث والثمانون : أهل الجحود لم يصلوا فى علومهم إلا إلى جهل مركب ، أو جهل بسيط ، أو جحود مع العناد .
- ٨٧ تعريف بالكتاب .
- ٨٩ فهرس .